الماء العاشق

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ-٢٠١٨م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

اسم الكتاب	: الماء العاشق
اسم المؤلف	: أحمد فضل شبلول
الغلاف	: عبد الرحمن حافظ
التصحيح اللغوي	: خالد رجب عواد
الطبعة	: الأولى
رقم الإيداع	: ٢٠١٧/٢٢٩٣١
الترقيم الدولي	: ٩٧٨-٩٧٧-٧٨٦-١٢٤-٣

٨ عمارات الواحة – قطعة ١٠ – مدينة نصر - القاهرة
ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠
ghorabpublishing@hotmial.com

الماء العاشق

أحمد فضل شبلول

دار غراب للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى ذكرى قديمة في مرسى مطروح

الماء خليلي

دون أذن مني، دخل وتسلّل إلى أرضية الشقة المصنوعة من السيراميك. كان ينسابُ بنعومةٍ بالغة، ومائيةٍ مطلقة. لم يره أحد وهو يتسرسب سوى فأر صغير هرب من أول وهلة. هكذا الدور الأرضي في كل العمارات التي تقع على الكورنيش، رغم رطوبتها ومشاكلها فإنني أحبها.

أفتحُ الشباك على مصراعيه بعد الفجر، فأستنشقُ اليود الخام قبل الزحام. حاولتُ من قبل أن أخزّن بعض اليود في زجاجة عطر فارغة، فأشمّه وقت الحاجة، ولكنه أبى، وعاد إلى بحره ساخرًا ومُحطِّمًا زجاجة العطر. لم يصحب معه أي ذرة رمل. جاء بنفسه، بأكسجينه ونتروجينه، فقد زوجتهما لبعضهما البعض، ولا انفصام بينهما منذ الأزل وحتى الأبد. أي انفصام أو انفصال سيؤدي إلى كارثة محققة، لا تستقيم معها الحياة. الانفصام أو الانفصال يعني الموت والنهاية. وأنا أريد الحياة أن

تستمر، لذا رحَّبتُ به فور وصوله وانسيابه، لم أتبرم كما يفعل البعض، ولم أستخدم الممسحة أو الإسفنجة، لإزالته أو تجفيفه أو تنشيفه.

رفعتُ كل قطع الموكيت والسجاجيد والمشَّايات، وكل شيء على الأرضية قد يعوقه عن الدخول والانسياب. وقلت له: أهلًا تفضل يا حبيبي. ضحك في وجهي. أخذ يتراقص، يعلو، يهبط، يتعرّج، يتمدّد، يذهب يمنةً ويسرة، يعود تحت قدمي يُقبلها، يتسلق ساقي حتى الركبة، فأشعر بنشوة ورعشة من ملامسته، كتلك التي يشعر بها من ينزل البحر لأول وهلة. أمُدُّ يدي إلى ركبتي، فيتعلق في أصابع كفي يغمرها بالحب والقُبل، ثم ينحسر عن ركبتي ويعود إلى أرضية الصالة، ثم إلى مخبئه.

منذ آلاف السنين وهو ينتظر شخصًا مثلي، يُرحِّبُ به، ويحبُّه ويخاف عليه، ويبذل له عروقه ودماءه وشراينه ليدخل بها ويعيش فيها، ويقيم أفراحه ومسراته وحفلاته المائية داخل الجسد.

هو يحفظ كل الأغاني والقصائد التي كُتبت عنه، ويترنم بها داخل جسدي مثل أغنية محمد عبد الوهاب:

"الميه تروي العطشان

وتطفي نار الحرَّان

يا سلام على الميه".

كما يردد دائمًا أغنية عبد الحليم حافظ:

"يا أحلى بحر وأحلى رمل وأحلى ميه

احنا وشبابنا وحبنا يا اسكندرية".

لقد اختار الإسكندرية ليقيم فيها بقية حياته، واتخذها عاصمة لمملكته المائية.

هو الذي أوحى للإسكندر المقدوني أن يتخذ هذا المكان المتوسطي عاصمة لإمبراطوريته الشاسعة في العالم القديم. وقتها لم أكن موجودًا في الإسكندرية، كنتُ في مكان آخر من العالم، لم أتذكره الآن. كان مكانًا ترابيًّا وليس مائيًّا. ربما كان بلاد الأنباط، أو مدائن صالح. ولكن بمجرد الانتهاء من تأسيس الإسكندرية، حضرتُ على الفور وأخذتُ أتأمل المكان الذي سأعيشُ فيه إلى الأبد.

كنتَ أنتَ تحصنني ضد أي هجمات ترابية قادمة من الصحراء، فتصنع حولي نافورة غير مرئية تطرد ذرات التراب والهواء الملوث. وأحيانًا تصنع غيمة فوقي أو تدخلني في دوامة من بخار الماء. كان الترابيون يحاربونني بإلقاء ذرّاتهم وأكاذيبهم وافتراءاتهم فوق هامتي كلما خرجت إلى الكورنيش، يلقونها ويجرون، فأعود إلى البيت حزينًا منكسرًا أفتح صنبور الحمام، فيتدفق منه الحب والحنان والرقة والأمان. أغتسلُ من إهانات الترابيين وأكاذيبهم، وأُبدِّل أثوابي، بأثواب مائية لا يراها إلا البحريون من أمثالي.

كتبت له في فجر التاريخ أنشودتي الأولى:

الماءُ خليلي

منذ اليومِ الأولِ من أيام الخلق

والموجُ رفيقي

منذ دوائرَ تكويناتِ الأرض

والرملُ صديقي

منذ بدايةِ ترنيماتِ الضوء

والشمسُ طريقي

نحو الحبِّ

ونحو الدفءِ

ونحو الشوق

فتعاليْ يا أزهارَ العشق

كيما نتسامرُ بين دروبِ الفجر

وتهاديْ يا أغصانَ الماء

كيما نتلاقى فوق سماءِ الصحراء

فالماءُ اليومَ حبيبي

والماءُ الآنَ شريكي

وسيبقى الماءُ قصيدي

حتى آخر عطرٍ من أنفاس الشعرِ

وحتى آخر قطرة ..

من قطراتِ الروح.

الماء والتراب

لم يكن هناك إلا الماء، وأنا، أجلس فوق عرش مائي، أتابع المخلوقات المائية، وأداعب أسماكي وحيتاني، وحوريات البحر اللاتي يسبحن ويطُفن أمامي، لم يكن الإنسان قد خُلق بعد، فكان العالم جميلًا وحنونا ومُتسعًا وهادئًا وسعيدًا.

لم تكن هناك ذرة تراب واحدة في هذا العالم، فالتراب لم يخلق إلا مع الأرض والإنسان، كما لم يكن هناك عظام، فالعظام تعني أن هناك موت، ونحن نعيش في الخلود، ولا نفهم معنى الموت، أو ماذا يعني الموت؟

التراب مرتبط بالموت (التراب خليلُ المماتِ، نصيرُ الرقاد)، والماء مرتبط بالحياة، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾. لذا فأنا لا أحب التراب (الترابُ، الغبارُ، ونسجُ العناكب)، ولكن الإنسان يحبه ويموت

فيه. وقد رفضتُ أن أعيش معه وفي أرضه الترابية، وفضَّلت العيش بين البحر والسماء، وفيها رأيت الله يستقبل الأنبياء والرسل التي أرسلها للبشر، وآخر هذه الاستقبالات كانت في رحلة المعراج التي قام بها النبي محمد، رأيته يصعد بعد أن التقى الأنبياء والرسل وصلّى بهم.

كما أنني لا أفهم معنى الجسد، إلا إذا كان جسدًا مائيًّا، أما الجسد الترابي فهو فقيرٌ فانٍ (الترابُ الفقيرُ يقاومُ حِجلةَ هذا الغراب) مثله مثل الأرض التي يعيش عليها.

وضعني آدم في ورطة، عندما لم يستجب لأوامر الله وعصاه، فطرده من جنته ليهبط إلى التراب. من قبله عصاه إبليس ورفض السجود لآدم، آدم خُلق من تراب وإبليس خُلق من نار، رفضت النار أن تسجُد للتراب، وحدثت المشكلة.

لم يشأ الله أن يخلق أيًّا منهما من الماء الخالص، فهما لا يستحقان هذا الماء الخالد، الماء العاشق.

يقولون كيف تحدث مشكلة ولم أسعَ إلى حلها، ولماذا لم أفضّ الاشتباك بين آدم وإبليس حتى الآن؟ لم أشأ أن أتدخل بينهما، لأن الله منح كلًّا منهما عقلًا يفكر به ويختار ما يشاء دون الرجوع إليه، وعلى الرغم من ذلك كنتُ متحيزةً بعض الشيء إلى آدم وزوجته وحذرته من الشجرة، وحبَّبت له العيش في الماء.

كان آدم يستحم في الماء خمس مرات كل يوم، كانت أنهار الجنة وبحارها ومحيطاتها وخلجانها ملكًا له، يسبح فيها كيف يشاء، ويصطحب حواء معه، يعلمها كيف تسبَح وتسبِّح، ويمارس الحب والعشق والغرام. يقول لها: إنك في الماء المقدس فاخلعي ثيابك كلها.

جسد آدم كان أغلبه مائيًّا قبل أن يقترب من الشجرة، بمجرد اقترابه أخذ جسده يتحول تدريجيًّا إلى التراب. اندمج الماء مع التراب، فصار طينًا، فنفخت فيه كي يفيق، ولكنه لم يفق، وصمَّم على الأكل من الشجرة المحرمة. عندها بدأ الماء يجفُّ في جسده، وبدأتْ عملية الإخراج والروائح الكريهة تخرج من جسده الترابي.

عندما كان جسده مائيًّا، لم تكن هناك رائحة له، كان جسده شفافًا، كان كمثل النور الهادئ الذي ينير المكان الذي يقف فيه، ليس كمثل نور الله بطبيعة الحال. فالله نور السماوات والأرض، أما آدم فهو نور المكان الذي يوجد فيه فقط.

بعد أن هبط إلى الأرض أخذ هذا النور يتلاشى تدريجيًّا إلا من قلة قليلة من نسله، اخترتُهم أنا بعناية فائقة، ليكون هناك بعض المعجزات التي تؤكد وجودي بين البشر والمخلوقات الأرضية والمائية، وكنت أنتَ يا عمر آخر هذه المعجزات.

ليس من المعقول أن يهبط آدم وحواء من الجنة، ويعيشا وحدهما في الأرض الترابية التي لا بد أن تعمر بأبنائهما وأحفادهما؛ لذا وضعت في

كل منهما ماء معينًا، يجلب لهما الشهوة والنشوة والانجذاب الجنسي وإنجاب البنين والبنات.

ماء آدم هو ماء الحياة (ويسمى المَني) سائل لزج ذو قوام كثيف لونه يميل إلى اللون الأبيض أو الأصفر حسب نوع الطعام الذي يتناوله. له رائحه عطرية مميزة مثيرة للمرأة تُشبه طلع النخل، وله طعم فريد مميز لا يمكن للمرأة أن تنساه، وهو يميل إلى الملوحة في الغالب، لكن طعمه يعتمد أيضًا على نوعية أكل الرجل فمثلًا عند أكل الفواكه أو شرب العصائر بكثرة فإنها تعطي المني طعم سكريًّا لذيذًا.

ينتج أكثر مكونات المني من خلايا في أسفل ظهر الرجل والبقية الباقية من البروستاتا والخصيتين، وهو يخرج عند وصول الرجل لقمة الإثارة عن طريق فتحة القضيب، فتخرج قذائف الماء أو المني لدفعات متقطعة ومتتالية وبسرعات مختلفة بين السريعة والبطيئة حسب شدة الشهوة وحسب آخر مرة تم فيها خروج المني، فكل خروج للمني يسمى عصرة.

إنه الماء السحري الذي يسقي جسم المرأة بعد البلوغ لتنعم بالصحة والحيوية. إنه الماء العاشق للحياة.

بعض النساء يفكرن أن يكن ندًّا للرجال، ولكن الرجال لم يحاولوا أن يكونوا ندًّا للنساء. والمرأة حينما تفعل ذلك فهي حتما ستُجنَ أو ستنتحر، وقد حاولت فرجينيا وولف ذلك، وقادتها المحاولة إلى التفكير في الانتحار بالقفز من النافذة، ابتلعت أيضًا مئات الحبوب المنومة،

لكنهم كانوا ينقذونها دائمًا. اضطرت في النهاية أن تطلب العون من الماء العاشق. من ساعتها لم تفكر أبدا إلا في أنوثتها ومائيتها، وجمال يديها التي تعرضهما دائمًا للشمس وللماء. ثم أنهت حياتها في الماء، في نهر يُدعى أوس.

التعرُّق

ليس كل الماء نظيفًا وجاريًا وصالحًا للشرب والحياة، فهناك ماء عكر، وماء آسن، وماء راكد وماء آجن، وماء تعرّق، وغير ذلك من أنواع الأمواه.

كانت هدى إسماعيل إحدى زميلاتي في العمل تتعرّق بكثرة، ولا يطيق زملاؤنا رائحتها. استخدمتْ أنواعًا مختلفة من مزيل العرق، ينتشر عطره دقائق معدودة، ثم تطغى رائحة عرقها مرة أخرى. أصبحت زميلتنا عصبية من هذا التعرق، خاصة بعد أن تقدم لخطبتها أحد الشبان، ثم تركها بسبب تلك الرائحة المائية العفنة، كلما همَّ بتقبيلها تهب رائحة عرقها فيبتعد عنها.

اجتذبني جمال قوامها واعتداله، ورقة صوتها، وملاحة عينيها، وشعرها الأسود الناعم الذي يصل إلى خصرها تقريبًا، فيمنحها مظهر

فتـاة صـغيرة، ووجههـا القمحـي الـذي يتـشرّب النـور دائـمًا، وأنفهـا الصغير، وأسنانها البيضاء المستوية، ومؤخرتها اللطيفة الشمسية اللينـة، لديها جبين ملكة، ويـدان تـشعان بالحنـان، وشـفتان عـسليتان لكـنهما حزينتان.

عندما اقتربتُ منها بعض الشيء أخذتُ أتـشمم نـصفها الأسـفل، فلم أجد تلك الرائحة، بل ماؤها السفلي كان ذا رائحـة طيبـة، تتنـاقض مع رائحة مائها العلوي المتمركز تحت الإبطين وبـين الثـديين، وخلـف الأذنين، وخاصة في فصل الـصيف. إنهـا فتـاة تتمتـع بكامـل غمـوض الصبا.

أخذت أفتش عن كتب وأسأل أسئلة غير مباشرة وأحيانًـا مبـاشرة لأصدقائي الأطباء، وخاصة أطبـاء الأمـراض الجلديـة، عـن الـسبب، وعرفت أن التعرق هو عملية التخلص من الإفرازات الجسمية المكوَّنـة بشكل أساسي من الماء وبعض الأملاح والمركبـات الكيميائيـة، والـذي يُسمى بالعرق.

ينتج العرق لدى الإنسان عن طريق الغدد العرقية التي لهـا دور في تنظيم حرارة الجسم وذلك عن طريق التبريد بتبخير العرق عـلى سـطح الجلد ويبلغ عددها في الجلد ٢ – ٤ ملايين تقريبًا، والنساء لـديهن عـدد أكثر من غدد العرق من الرجال. وتلك الغدد تفرز العـرق تحـت تـأثير الجهاز العصبي.

ويعمل التوتر العصبي والإثارة أيضًا على إهاجة وحث الغدد العرقية خاصة تلك الموجودة في اليدين والإبطين. وهكذا كانت هدى إسماعيل عندما تتوتر، تهيج غددها العرقية أكثر، تفرز رائحة غير مستحبة، مثل رائحة اللحم المُنْتِن.

قال صديقي الطبيب أحمد قمحة إن من أسباب التعرق: التوتر والقلق، وارتفاع درجة الحرارة، وعوامل وراثية، وفرط الغدة الدرقية، والبدانة، وعند الشعور بألم شديد أو غثيان أو دوار، بالإضافة إلى الحركة والنشاط. وأضاف أن المكونات الكيميائية للعرق ترتبط أساسًا بالنظام الغذائي للفرد والحالة الصحية العامة له. ويتم إفراز العرق البارد عادة بسبب العصبية والخوف والتوتر بكميات كبيرة.

وأوضح أن معظم الناس لديهم نحو مليونين إلى أربعة ملايين غدة عرقية في الجسم، ولكن الغدد عادة ما تكون أكثر نشاطًا عند الذكور، مما يجعل الرجال أكثر تعرقًا.

وعندما سألته: هل يمكن التحكم في التعرق؟

أجاب إن التعرق الزائد قد يسبب الأذى لمن يعانيه، كما يمكن أن يكون بيئة خصبة للبكتيريا، مما يؤدى إلى إفراز رائحة نتانة بالجسم، وخاصة في الأجزاء الرطبة الدافئة من الجسم مثل الإبطين ومنطقة الفخذ.

وأي شخص يعاني التعرق الزائد ينبغي أن يهتم بالنظافة الشخصية، وارتداء الملابس والأحذية المصنوعة من القطن والصوف والكتان والجلود، بدلًا من المصنوعة من المواد الاصطناعية.

لم أشأ أن أقول له إنني شممتُ رائحة طيبة بالجزء الأسفل لإحدى زميلاتنا، في حين أن رائحة الجزء الأعلى لم تكن جيـدة، لأنـه سيـسألني وكيف شممت الجزء الأسفل، كيف وصلت إليه؟

الزجاجة

لم تكن هدى إسماعيل بدينة، كانت تستحم مرتين في اليوم على الأقل، الماء يسيل على جسدها الناعم وينساب فرحا كاسحًا للصابون ذي الرائحة النافذة والشامبو المستورد، كانت تستخدم زيوتًا عِطرية خاصة بالمنطقة الحساسة، وتنثر بودرة المسك في أماكن مختلفة من جسدها.

بعد خروجها من الحمام تهفهف رائحة جميلة لا تلبث أن تنقلب إلى رائحة كريهة مثل رائحة البيض الفاسد، فيصيبها التوتر والعصبية لعدم وجود علاج لرائحتها. كثيرًا ما عانى أفراد أسرتها، وخاصة والدتها، من عصبيتها، لكنهم كانوا يتفهمون حالتها، يحاولون التخفيف عنها. عندما تهدأ قليلًا تعتذر لهم.

أخذتُ أفكِّرُ في حالة هدى، وكيف تجمع بين النقيضين، فلاحظ الماء الذي يقيم في شقتي شرودي وغفلتي عنه، بعد أن كان صديقًا بل خليلًا.

سألني: ما بَكِ؟

حاولتُ أن أشرح له، ومن الغريب أنه فهم فورًا الحالة، ويبدو أنه خبير في حالات الماء وتحولاته من العذوبة إلى الملوحة، ومن المرابيع إلى العفونة، ومن الجريان إلى الركود والهمود، ومن الماء الرقراق إلى الماء الثمل.

اقترح عليَّ الذهاب بهدى إلى حمام كليوباترا في مرسى مطروح، فهناك سنجد العلاج المناسب. اقترحتُ على هدى أن تسبح في حمام كليوباترا بمرسى مطروح، والذي كان جزءًا من قصرها هناك قبل أن يتهدم. تقضي وقتًا هناك، فربما تكون كليوباترا قد تركت عطرًا ما، أو عُشبًا ما، أو زيتًا ما، أو ماءً ملكيًّا ما، يصلح للعلاج.

استحسنت الفكرة وطلبت مني أن أذهب لأستحمَّ معها، فوافقت. أخبرتْ أسرتها أنها ذاهبة في مهمة عمل إلى مرسى مطروح، وستبحث هناك عن أعشاب أو زيوت عطرية أو بودرة مسكية ناجعة لحالتها المستعصية التي تتفاقم يومًا بعد يوم.

وصلنا فجرًا إلى مرسى مطروح، توجهنا على الفور إلى حمام كليوباترا الذي يبعد حوالي ٥ كم غرب المدينة. خلعتْ ملابسها أمامي

وكان ترتدي مايوه البحر تحت ملابسها المكونة من بنطلون جينز أزرق وبلوزة صفراء، ووضعتها على صخرة مرتفعة. خلعتُ ملابسي المكونة من بنطلون جينز أزرق وقميص رمادي، وكنت أرتدي مايوهًا تحت البنطلون. وضعت ملابسي فوق ملابسها، ونزلنا إلى الماء. لم يكن الماء مرتفعًا، سِرنا فيه، نخوض مع الموج الهادئ. لم يكن أحدٌ غيرنا هناك.

على بُعد خطوات وجدت علامة على إحدى الصخور، كأنها سهم يشير إلى جهة اليمين، تبعت السهم المرسوم على الصخرة، حتى نهاية الإشارة، وجدت تجويفًا داخلها مددتُ يدي إلى عمق الصخر، لمست جسمًا ناعمًا، سحبته بأطراف أصابعي، فكان زجاجة بها سائل ما.

كانت هدى تبحث عني داخل الحمام، سمعت صوتها تنادي عليَّ، جاوبتها، اقتربت مني، رأت الزجاجة التي أحملها بين يدي، سألتني عنها، قلت لها على سبيل الدعابة: يبدو أن كليوباترا تركتها لك.

وجدت صعوبة في فتح الزجاجة، فقد تكاثر الرمل والملح والرطوبة والصدأ حول غطائها الخارجي، يبدو أنها موجودة هنا منذ قرون، ولم يعثر عليها أحد من قبل. حاولتُ أكثر من مرة، حاولتْ هدى إلى أن بدأ الغطاء يتخلخل قليلًا.

رويدًا رويدًا بدأ الغطاء يدور تحت ضغط أصابعي إلى أن تم الفتح. بعد نزع الغطاء وجدت سدادة من الفلين داخل عنق الزجاجة. بذلت أنا وهدى جهدًا لنزع الفلين، وكنتُ قد أحضرتُ معي حقيبة صغيرة وضعتها بجوار ملابسي بها قلامة أظفار تحتوي على ما يُشبه السكين

الصغيرة، أحضرت قلامة الأظفار ورشقت السكين في الفلين وسحبت إلى الخارج، فلم تستجب السدادة إلا قليلًا.

من هـذا القليـل انبعثـت رائحـة عطـر معتّـق مـن آلاف الـسنين، شممتُه وشمته هدى فلم تتمالك نفسها وبدأت تترنح بـين يـدي، كأنهـا سكرت من تلك الرائحة. أنا أيضًا بدأت أشعر بعدم الاتزان.

هل هذه الزجاجة من آثار كليوباترا؟ هل كانـت تتعطّـر بهـا؟ هـل خبَّأتها هنا في ذلك الشق الحجري بعيدًا عن أعين وصـيفاتها والخـصيان وجميع العاملين لديها، حتى لا يستعملها أحد غيرها؟ هل كانت تتعطـر هنا ليوليوس قيصر، أم لعشيقها مارك أنطونيو؟

أخذتُ هدى بين أحضاني، وقلت لهـا: يبـدو أن هـذا هـو العـلاج الذي جئنا من أجله.

ما زالت السدادة تراوغنا، وبعـد أن اسـتجابت لطعنـات الـسكين وبدأت تتزحزح قليلًا عن مكانها، توقفت ثانية في صلابة وتحـدٍّ، زالـت كل آثار الطعنات على وجهها كأنهـا عنـدما شـمت الهـواء المطروحـي ازدادت جمالًا والتحامًا بنفسها لتحافظ على ذاتها، لكـن العطـر لا تـزال رائحته تفوح بقوة.

اقترحت هدى أن نعود إلى الشاطئ، خاصة بعد أن لاحظتْ توافد عدد من زائري حمام كليوبـاترا الـذين بـدؤوا يـشمون رائحـة العطـر، يتتبعون مساره ومصدره، ثم يتوقفون بأعينهم وأنوفهم عندنا.

حملنا ملابسنا بعد أن ظفرنا بالزجاجة، عُدنا إلى أقرب شاطئ لحمام كليوباترا. أخذتُ أتأمل الزجاجة العطرية.

فندق عروس البحر

انتصف النهار ونحن نجوب شواطئ مرسى مطروح، نسير في مائها اللازوردي حاملين الزجاجة العطرية بين كفينا. كلما مررنا بجماعة من الجالسين على رمال البحر نراهم يشنفون أنوفهم، ينظرون لنا نظرة إعجاب وتقدير، دون أن يعرفوا لماذا.

لم تزل الزجاجة على حالها، ما بين مغلقة ومفتوحة، حيث لم نستطع نزع سدادة الفلين.

هل نعود إلى الإسكندرية بعد أن عثرنا على الزجاجة العطرية الملكية، أم نظل في مرسى مطروح؟ سؤال وجهتُه إلى هدى إسماعيل.

– ليتنا نظل هنا، لم أستمتع بعد بالشواطئ العذرية في مرسى مطروح، كما أننا لم نستطع حتى الآن فتح الزجاجة.

– إذن لا بد من البحث عن فندق أو مكان نستريح فيه، ونتناول شيئًا من الطعام، ونزيل ماء البحر المالح من على جسدينا بماء عذب، حتى لا يتقشر جلدنا.

في أثناء محادثتي معها لم أشم أي رائحة كريهة من جسد هدى، بل كانت رائحتها جذابة، تعمدت الاقتراب جدا منها ومسك يدها في أثناء سيرنا على الرمال، كانت رائحتها مسكية، وضعت يدي حول وسطها، لأقربها أكثر إلى جانبي، وضعتْ يدها حول وسطي، وسرنا كعاشقين على رمال مطروح.

اقترحت التوجه إلى فندق "عروس البحر" القريب من مقر المحافظة ومن شارع الإسكندرية، فهو فندق صغير وهادئ، واجهته بيضاء، ويطل على البحر مباشرة، وأسعاره في متناولنا.

وافقت هدى، وهناك حجزت غرفتين متجاورتين بالدور الأرضي، لم يكن الصيف قد هجم بعد، وما زلنا في أول الربيع. قال موظف الاستقبال لزميله: الروائح الحلوة بدأت تهل علينا، ظنًّا منه أن ما يشمه الآن هو من روائح الربيع.

دخلتُ غرفتي ودخلتْ هدى غرفتها، بعد أن اتفقنا على أن نلتقي بعد نصف ساعة في غرفتي لمحاولة نزع السدادة.

دخلت الحمام الضيق، لأنزع عن جسدي آثار البحر المالح، فوجدته يضحك لي، سعيدا وفرحا بعثورنا على الزجاجة الملكية.

دهشت وسألته: ما الذي أتى بك إلى هنا. ألم أتركك في شقتي في سيدي بشر بالإسكندرية؟

- كنتُ خائفًا أن تتعثر في الحصول على الزجاجة.

- لكني وجدتها.

- أعرف، أنا هنا لأساعدك في فتحها، وعليك أنت وصديقتك الجميلة تحمل الآثار المترتبة على فتحها!

- ماذا؟ آثار مترتبة؟ ماذا سيحدث أرجوك أخبرني؟

- ضحك ضحكة مائية عالية:

- لا تخف .. سوف ترى بنفسك.

- هدى سوف تجيء هنا بعد أقل من نصف ساعة.

- فلتجئ .. ولن تراني.

- ولكنك ستراها.

- لا .. سوف أعود إلى سيدي بشر فورًا.

- والزجاجة؟

- عليك أن تسدد سبع ضربات متوالية للفلين، سوف يتفتت، ولكن حذارِ أن يسقط الفتيت داخل الزجاجة، لا بد أن يكون خارجها.

فتحت دُش الحمام فانساب الماء شبه العذب من خزان الفندق. اغتسلت به، وأدركت أن مياه الإسكندرية العذبة أفضل من مياه مطروح، ولكن بحر مطروح المالح أجمل من بحر الإسكندرية.

أخرجتُ الزجاجة الملكية من حقيبتي الصغيرة، ووضعتها فوق الكومودينو بجوار السرير، وجلست أتأمل – من شباكي – البحر الممتد أمامي إلى ما لا نهاية.

بعد قليل حضرت هدى إسماعيل بقامتها المديدة وكامل بهائها، يسبقها عِطرُها وسحرها وألقُها. كيف لم أرَ هذا الألق والسحر من قبل، كيف كان زملاؤنا في العمل يحولون وجوههم عنها عندما تهلُّ من بعيد. أكل هذا بسبب رائحتها غير الطيبة؟

قال أحدهم: إنها فتاةٌ عِنْفِصة. سألته: وما معنى "عِنْفِصة" قال: المرأة المُنْتنة الريح.

ضحك آخر وقال إنها فَشوش، وقبل أن أسأله عنى المعنى قال: الفَشُوش هي المرأة التي يخرج منها ريحٌ عند الجماع.

قلت لهما: حرام عليكم، أليس عندكم بنات أو أخوات؟

قال زميل ثالث: إن بها ماءً طال مكثُه، حتى ظهر خبثُه، وتحرك نتنه.

جلست هدى على السرير، سألتني عن الزجاجة رغم أنها تشم رائحتها، قلت لها: نطلب فنجانين من الشاي أو القهوة أولًا وبعض الساندويتشات فأنا على لحم بطني منذ أن أفطرنا في أتوبيس السوبر جيت الذي حملنا من الإسكندرية إلى مطروح.

أدرتُ قرص الهاتف وطلبت عصير برتقال وساندويتشات جبن ومربة وفول وزيتون أسود، وفنجانين من القهوة، وجلسنا في شرفة الغرفة المطلة على البحر.

سألتني هدى عن الزجاجة للمرة الثالثة، فقلت لها: في الحفظ والصون، ولم تَرَها موضوعةً أمامها على الكومودينو بجوار السرير.

انثري العطر

انثري العطرَ
فالبحرُ آتٍ إلينا
كلُّه فتنةٌ واعتدالْ
موجُهُ رقةٌ وابتهالْ
انثري العطرَ
فالعطرُ نهرُ الخيال
واملئي عيننَا
دهشةً واكتمالْ
وأعيدي علينا
حكاياتِ شطِّ الجمال

- ما هذا؟

- هذا شعر.

- أعرف أنك تكتب الشعر، ولكن لم أقرأ لك شيئا للأسف.

- فرصة لتقرأي وتسمعي.

- هل كتبتَ هذا الشعر الآن؟

- نعم .. كتبته لـك أنـتِ يـا أجمـل هـدى في الـدنيا، ومـن وحـي اللحظة.

برقت عيناها وشعّ جمالها، واحمرَّت وجنتاها والتصقت بي أكثـر. لم تسألني عن الزجاجة بل طلبت المزيد من الشعر، فقلت:

خذيني إلى عطرِك المستحمِّ بفرحِ الهواء

إنني كنتُ في ذرةٍ من ضياهْ

في منامي آراهْ

بارقًا من خيال

كلُّه فتنةٌ واكتمالْ

لم تسطع التحدث، وأحسـست أن عقـدتها مـن رائحتهـا انحلـت تماما، فأخذت تبكي بين أحضاني، وسألتني: هل ما زالت رائحتـي غـير طيبة؟

بالعكس أنت رائحتك أزكى من كل الروائح التي شممتها طوال حياتي، مدت لي شفتيها فقبلتها قبلة طويلة، لم نفق منها إلا على جرس الباب حيث الجرسون يحمل صينية الطعام.

دخل الجرسون ووضع الصينية على مائدة صغيرة حولها كرسيان، وقال: صباح الفل يا بيه.

- صباح النور.

سألني عن مكان الفل في غرفتي.

- لا يوجد فل.

- أنا أشم رائحة فل منذ أن اقتربت من غرفتك، وزادت الرائحة الآن داخل الغرفة.

أعطيته بقشيشا لينصرف، وقلت له: إنها رائحة فندقكم!

التهمنا طعام الإفطار وشربنا قهوتنا. ثم حانت اللحظة الحاسمة. لحظة فتح الزجاجة. شرحت لها كيفية طعن الفلين بالسكين، سبع طعنات متتالية شريطة ألا يسقط فتيت الفلين داخل الزجاجة.

لم تسألني: كيف عرفت؟

أخرجت قلامة الأظافر، وتأملت السكين الصغيرة، ودعوت الله أن تنجح المحاولة، فأي قطعة فلين صغيرة ستسقط داخل الزجاجة معناها الفشل، كما أخبرني "الماء العاشق".

هل أقلب الزجاجة وأسدد الطعنات السبع وهي مقلوبة حتى لا يسقط الفتيت بداخلها؟ أخشى ألا أسيطر على تدفق السائل العطري خارج الزجاجة إذا تفتت الفلين على الوضع المقلوب، فيتسرب ويندلق على السرير أو المائدة أو الأرض. كما أخشى أن أسدد الطعنات للفلين والزجاجة في وضعها الطبيعي فيسقط فتيت الفلين بداخلها.

إنني في حيرة يا هدى.

هنا سألتني: ولماذا تسدد سبع طعنات متتالية؟

- هذه هي الطريقة الوحيدة لفتح السدادة.

- كيف عرفت؟

- قلت ضاحكًا: كليوباترا جاءتني في الحلم وأخبرتني بذلك.

ضحكت هدى، وسألت: ألا توجد طريقة أخرى.

- سأسأل كليوباترا عندما تزورني في الحلم المرة القادمة. أخشى أن ننجح في فتح الزجاجة، فيتبخر العطر الذي بها، بعد أن ظل راكدًا طوال القرون السابقة.

- كلام معقول! إذن نؤجل عملية الفتح حتى نعود إلى الإسكندرية؟

- هل سأستطيع أن أراكِ في الإسكندرية، وأن أكون معك كما نحن معا الآن؟

- سأستطيع التصرف ونلتقي دائمًا.

- إذن فلنؤجل فتح الزجاجة الآن.

- فلنؤجل. أريد مزيدًا من الشعر!

- سأسمعك المزيد في الإسكندرية، والآن تعالي إلى أحضاني، أستمتع برائحتك الجديدة التي ستخلب عشاق البحر وعشّاق التاريخ، وصنّاع العطور.

وجدتها تنكمش كما القطة بين أحضاني، وقالت محذرة في دلال شبقي:

- أنا لم أزل بكرًا.

- لا تخافي سأحافظ على عذريتك، رغم أن كليوباترا كانت امرأةً كاملة الأنوثة عندما كانت تنثُر عطرها هذا على كامل جسدها.

الفستان

عندما أفقنا قلت لها سأسألك أسئلة أرجو ألا تزعجك!

- من حقك أن تسأل أي سؤال يحلو لك.

- هل ولدتِ بهذه الرائحة التي كنتِ عليها من قبل؟

- من قبل؟ وكأنك تؤكد أن تلك الرائحة زالت بالفعل.

- نعم .. زالت بالفعل.

- الحمد لله .. لا لم أولد بها، ولكنّ شيئًا غريبًا حدث لي في أثناء الاستعداد لحضور حفل زفاف ابنة خالتي.

- منذ متى؟

- من حوالي ثلاث سنوات، قبل أن أُعين في الشركة التي نعمل بها الآن.

- ما الذي حدث؟

- ياسمين ابنة خالتي هي في عمري تقريبًا، تقدم لها عـريس، قبـل أن تتم خطبتي لزميلي الذي فسخها فيما بعد، وأنت تعرف السبب.

- نعم .. أعرف.

- لم يتقدم لي عريس قبلهـا، لـذا أصـابتني الغـيرة مـن خطبـة ابنـة خالتي، ثم حفل زفافها الذي تم بسرعة، فقد كان عريسها جاهزًا، لديـه شقة في الإسكندرية، وسيأخذها إلى أبو ظبي حيث يعمل. قلـت لا بـد أن أكون أجمل فتاة في الفرح. حذرتني أمي قائلة: لا تلبسي فستانًا أفضل وأشيك من فستان العروسة، حتى لا يظن البعض أنـك تغـارين منهـا، خاصة أنك في مثل سنها.

- اللي يظن .. يظن.

- لا يا ابنتي .. إنها ليلتها هي، وأنت في ليلتك البـسي مـا تـشائين، هذه هي التقاليـد والأصـول، لا نغطـي عـلى فرحـة العروسـة بأشـياء شكلية.

- يجب أن أكون أشيك بنت في الفرح.

قالت والدتي غاضبة:

- أنت حرة، ولكني أنا غير راضية عن سلوكك هذا!

- ألأنها ابنة أختك؟

- لا يا حبيبتي .. إنها الأصول!

ذهبتُ إلى أكثر من محل واتيليه لملابس الأفراح في شارع سعد زغلول وشارع صفية زغلول وشارع النبي دانيال والمنشية وشارع سينما لاجيتيه بالإبراهيمية وغيرها، أقيس هذا الفستان، وأتحسس ذاك، وأسأل عن الأسعار، حتى أختار ما يُناسبني. وكانت الأسعار كلها عالية جدًّا. رفضتُ فكرة تأجير فستان التي اقترحتها والدتي، وصممت على الشراء.

- إنك ستلبسينه مدة لا تزيد على ساعتين، فلماذا تدفعين حوالي ألف جنيه لشراء فستان لن تلبسيه ثانيةً؟

لم أقتنع برأي والدتي، وعاودت الجولة مرة أخرى.

أعجبني أحد الفساتين في مول جديد بالمنشية، كان لونه ورديًّا لامعًا وتفصيلته تجنن. وسعره مناسب جدًّا. دخلت أقيسه في حجرة القياس، فلم تعجبني رائحته، وشممت ما يشبه العرق والبيض الممشش أو الفاسد. ولكن أمام شكله وسعره المناسب لما معي من نقود، قلت أشتريه ثم أنثر عليه عطوري لتذهب تلك الرائحة. بالفعل اشتريت الفستان وأجرى لي صاحب المحل خصمًا يعادل ١٥ ٪ على سعره بمناسبة الافتتاح، وقام بوضعه في علبة أنيقة.

ذهبت إلى البيت وفتحت العلبة، جاءت والدتي تشاهده، أعجبها شكله وتطريزه، ولكنها علقت على رائحته غير المريحة. قلت لها: سأنثر عليه العطر وستزول عنه الرائحة.

حضرت فرح ابنة خالتي، ولم تـذهب رائحتـه العفنـة رغـم كميـة العطر التي أطلقتهـا عليـه. الكـل كـان يـسلم عـليَّ ويمـدح في شـكل الفستان، وسرعان ما يبتعد عني. لاحظت والدتي ذلك، وقالت: حـرام الفلوس اللي دفعناها في فستان النكد ده.

بعد أن انقضت ليلة العرس، حاولت إرجاعه للمحل ولو بنـصف السعر، لم يرضَ صاحبه. وقال لي: ما ينفعش وتلك الرائحة لم تكـن فيـه قبل بيعه لك.

وضعتُ الفستان في دولاب ملابسي، كلما فتحتـه تهـب عـلي تلـك الرائحة التي انتقلت إلى جسدي، خاصـة الجـزء العلـوي عنـد الـصدر والإبطين. عندما ضِـقتُ بـه رميتـه في صـندوق الزبالـة، لكـن بعـد أن تمكنت الرائحة من جسدي حتى الآن. هذه هي الحكاية كلها.

– بسيطة ان شاء الله، كنت أخشى أن يكـون هنـاك مـرض وراثـي يصعب علاجه ولو بعطور كليوباترا.

سمراء بلون النحاس

سألتني هدى إسماعيل سؤالًا مفاجئًا، وأنا بجانبها فوق السرير في حجرتي بالفندق: هل كانت كليوباترا سمراء بلون النحاس حقًّا، وكانت عاهرة أو داعرة؟

- بالتأكيد ملكة مصر لم تكن عاهرة أو داعرة في يوم من الأيام، وهذه إشاعة روج لها أعداؤها وخصومها، وقد دحضها الكثيرون. أما لونها الأسمر، فهو لون المصريين الذين لوحتهم شمس مصر الحانية، مع أنها كانت بطلمية، أي من نسل البطالمة أو البطالسة الذين حكموا مصر بعد وفاة الإسكندر الأكبر، ولكنهم تمصَّروا، وكان يطلق على كليوباترا السابعة .. "كليوباترا المصرية".

ويقال في وصفها: إنها كانت تبدو أجمل من فينوس ربة الجمال التي أبدعها الخيال. كانت ذات جمال ورشاقة وحلاوة وطلاوة لسان كما

وصفها بلوتارك أحد المؤرخين بالغرب. ولسانها كان آلة موسيقية تعزف وتغري بالعديد من المباهج والملاهي، وكانت تحول ذلك إلى أي لغةٍ تُعجِبُها.

– وماذا عن العلاقات الغرامية الكثيرة التي أقامتها وغامرت بها؟

– سأجيبك بما أجاب به أنطونيو كليوباترا عندما كانت تلح في الأسئلة: لا ينبغي بعد الآن أن تنقضي من حياتنا دقيقة واحدة من دون أن نجتبي فيها بعض اللذات، خاصة أنك يا هدى تزدادين بهاء على بهاء.

تضحك هدى في دلال:

– أنطونيو قال لكليوباترا: يا هدى تزدادين بهاء على بهاء؟

– لا .. أنطونيو انتهى كلامه عند قوله: بعض اللذات. وباقي الكلام لي وعنك!

يحمر وجهها وتدخل في أحضاني هامسة:

– أريد أن أعرف المزيد عن كليوباترا تلك التي سوف أتعطر بعطرها منذ الآن.

– عليك إذن بقراءة الكتب والمسرحيات التي كتبت عنها ومشاهدة الأفلام والمسلسلات التي أُنتجت ومُثِّلت عنها.

– مثل؟

- مسرحية شكسبير "أنطونيو وكليوباترا" وقد ترجمها د. لويس عوض، ود. محمد عناني، مسرحية "مصرع كليوباترا" لأمير الشعراء أحمد شوقي، مسرحية "قيصر وكليوباترا" لجورج برناردشو، مسرحية "كل شيء من أجل الحب" لجون درايدن، وكتاب "كليوباترا بين الحقيقة والأسطورة والإعلام" لبسام الشماع. وهناك فيلم الأمريكية إليزابيث تايلور التي مثَّلت دور كليوباترا في السينما الغربية عام ١٩٦٣، والمسلسل العربي الذي قامت ببطولته الممثلة السورية سلاف فواخرجي عام ٢٠١٠.

يُقال عن عطرها: لقد ضمَّخها العطر حتى لقد تُيمت بحبها النساءُ. وأحيانًا كانت تتزيا بزي الربة أو إلهة المصريين إيزيس. وربما كان العطر الذي خبأته في حمامها هو عطر الربة إيزيس، الذي ما إن تضع قطرة منه حتى يسجد لها المصريون.

تخيَّلي يا هدى أنك بعد أن تضعي قطرة من العطر الذي في الزجاجة، تصبحين الربة إيزيس ويسجد لك المصريون.

- حيلك .. حيلك .. هذا كلام خطير.

- فقط أحضري ملابس كليوباترا وتزيي بها، ثم انثري العطر لنرى كيف يعاملك المصريون. سيستقبلونك في البر والبحر ويتسلقون الأشجار والجدران ويصطفون في الشوارع كي يشاهدوك وأنتِ ترفعين يدك تُلوِّحين بها لهم.

- خيالك واسع جدًّا .. خيال شاعر فعلا. لقد انتهى زمن الآلهة والأرباب، لا يوجد سوى إله واحد أحد .. ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾.

يا ساكني مطروح

- متى سنعود إلى الإسكندرية؟

سألتني هدى إسماعيل.

- الآن لو أحببتِ.

- أريدُ أن أقضي يومًا آخر في مرسى مطروح. البلد الآن هادئة قبل هجوم الصيف والمصيفين. أريد الذهاب مرة أخرى إلى حمام كليوباترا. أتأمله أكثر. كما أريد الذهاب إلى سوق ليبيا لشراء الزيتون الأسود والأخضر، وزيت الزيتون والنعناع الجبلي وبعض الأعشاب التي تُشتهر به مرسى مطروح وواحة سيوه.

- إذن نذهب بعد قليل للسوق، وفي الصباح الباكر نذهب لحمام كليوباترا، وأيضًا نذهب لشاطئ الغرام، نرى صخرة ليلى مراد، نزور شاطئ عجيبة، وشاطي روميل، سيدي العوام، البوسيت، الأبيّض.

تغني هدى إسماعيل أغنية ليلى مراد الشهيرة:

يا ساكنى مطـــروح جنية في بحركـــم

الناس تيجي وتروح وأنا عاشقة حيكم

- واضح أنكِ أحببتِ مرسى مطروح.

- يكفي أنني وجدت فيها عطر كليوباترا الذي حَلَّ أزمتي.

ثم تذكرت الزجاجة وسألتني عنها. أشرتُ إلى الكومودينو:

- ها هي.

اطمأنَّت .. أمسكتها. احتضنتها. قبلتها. فاحت رائحتها الجميلة أكثر واكثر.

- متى سنفتحها؟

- في الإسكندرية.

عودة الرائحة

عُدنا إلى الإسكندرية محمّلين بخيرات مرسى مطروح. أوصلت هدى إلى بيتها في كليوباترا حمامات، وأكملت بالتاكسي نفسه إلى سيدي بشر، في كل لحظة يثني السائق على رائحة تاكسيه التي لم يشمها من قبل.

وجدت الماء العاشق في انتظاري بشغفٍ وشوق. قبلته، احتضنته، غسلت يدي ووجهي به، فتطهرت من كل أعباء الرحلة من مطروح وحتى سيدي بشر. سألني عن الزجاجة.

- لم أستطع فتحها.

- وصاحبتك؟

- أوصلتها إلى بيتها في كليوباترا حمامات.

- على نهاية اليوم ستعود رائحة صاحبتك إلى سيرتها الأولى.

- كيف هذا؟

- إن الرائحة التي كنتم تشمونها وتسعدون بها، هي رائحة الزجاجة، وليست رائحة صاحبتك، والزجاجة معك الآن.

- والعمل؟

- لا بد من فتح الزجاجة، ثم تدهن جسمها كله بالسائل العطري المقطَّر الذي بها، هذا هو العلاج الناجع والشافي بإذن الله.

- إذن أحاول الآن فتح الزجاجة بالطريقة التي ذكرتها لي من قبل، حتى لا تتساقط قطع الفلين بداخلها، فتفسدها.

- هل ستستطيع طعن سدادة الفلين سبع طعنات دون أن تسقط قطع منها داخل الزجاجة؟

- أحاول.

- لا أريد لك الفشل.

- ما العمل؟

- أقترحُ عليك الذهاب بالزجاجة إلى أحد الخبراء الأمناء في فتح الزجاجات العطرية القديمة.

- وأين أجد هذا الخبير الأمين؟

- في مغارة جعيتا .. شمال بيروت.

- .. في بيروت؟

– نعـم .. ولا تـستهِن بـالأمر، إن لـديك كنـزًا لا تـستطيع تقـدير حجمه الآن، الزجاجة ثروة ضـخمة في حَـدِّ ذاتهـا. إذا فُتحـت بطريقـة سليمة ستحدث انقلابًا هائلًا في عالم العطور، وستغير مجرى حياتك.

– دعني أسترح قليلا وأفكر في الأمر.

– إذا كنتَ واثقًا أنك ستفتحها بطريقة سليمة دون أن تفقـد نقطـة واحدة منها، ودون أن يسقط فتيت الفلين بداخلها، افعل.

– لستُ واثقًا.

– إذن ليس أمامك سوى شيخ مغارة جعيتا.

في المساء اتصلت بي هدى، وهي في حيرة من أمرهـا. أخبرتنـي أن الرائحة العطرية المذهلة التي كانت عليها في مرسى مطروح بدأت تزول تدريجيًّا.

– لأنها كانت رائحة الزجاجة، وليس رائحتك.

أحسستُ أنها أُصيبت بالإحباط الشديد:

– إذًا لا بد أن تكون الزجاجة معي.

– ليست هذه هي المشكلة.

– ما المشكلة؟

– لا بد من فتح زجاجة كليوباترا، بمجرد دهان جـسدك كلـه مـن عطرها ستزول الرائحة غير الطيبة إلى غير رجعة.

– افتحها، وسآتي إليك فورًا في سيدي بشر.

– فتحها ليس بهذه السهولة، لا بد من طعن سدادة الفلين سبع مرات متتالية، وإذا سقطت قطعة منها داخل الزجاجة فَقَدَتْ تأثيرها. وأنا غير واثق بنجاحي في فتحها بهذه الطريقة.

– والعمل؟

– رجل وحيد في العالم هو الذي يستطيع فتحها دون أن تسقط قطرة عطر على الأرض، ودون أن يسقط فتيت الفلين بداخلها.

– أين هذا الرجل؟

– في مغارة جعيتا ببيروت. هل تأتين معي؟

– بيروت ..! ستسافر يا عمر؟

– ليس أمامي حَلٌّ آخر.

– سآتي معك. لكن ليس معي جواز سفر.

– استخرجي جواز سفر غدًا. وحتى تاريخ استلامه والسفر، اسمحي لي أن تكون الزجاجة معي.

– أنت رائحتك جميلة يا عمر، على العكس مني. سآتي إليك الآن لأخذها.

سألت نفسي من أين يعرف الماء كل هذه المعلومات، وكيف يعرف شيخ مغارة جعيتا الذي دلني عليه؟

هل هذا الماء مجرد ماء، أم هو عرَّاف، نبي، ملاك، وحي من السماء؟

إيهٍ أيها الماء العاشق!

هدى إسماعيل

هل أنا أحببته حقًّا؟

أم هو شعور بالشكر والعرفان، لما يقدمه لي من خدمات وروائح ورفعٍ من روحي المعنوية بعد أن كانت في الحضيض. إنه شابٌّ مهذب رقيقٌ، أسمر يميل إلى الطول، مثقف ثقافة عالية، شاعر تخرَّج في قسم اللغة العربية بكلية الآداب، لم يشتغل بالتدريس. بعد أن أمضى فترة تجنيده بالقوات المسلحة، تم تعيينه بعقد مؤقت اختصاصي علاقات عامة بالشركة التي كان يعمل بها والده.

تم تثبيته بعد سنتين، أصبح رئيسًا لقسم العلاقات العامة. الجميع يحترمونه ويقدرونه. ينظم ويشرف على رحلات العاملين التي تقررها الشركة إلى المصايف المصرية (مرسى مطروح، العين السخنة، شرم الشيخ، الغردقة، رأس البر، جمصة) والمشاتي (الأقصر وأسوان).

إعجابي به لم يزد عن إعجاب زميلة بزميل، خاصة أنه الوحيد الذي لم يتحدث عن الرائحة الكريهة التي أصابتني. بل كان يدافع عني، ويرد على اتهامات الزملاء الكريهة التي تنتشر أبعد مما تنتشر الرائحة.

أحسست أنه كان يعاملني معاملة خاصة في أثناء الرحلات الصيفية التي كنت أذهبُ فيها مع والدتي. والدتي تحترمه، تقول: إنه ليس من الشباب (الهلس بتوع اليومين دول). سمعتها تدعو في سرها: يا رب تجعله من نصيبها. لم أعلق ولم أعر الأمر أي أهمية.

لاحظتُ عشقه للبحر. دائمًا يحدثني عن البحر والماء والسماء والصفاء والنقاء، كأنه يريد أن يتخلص من الواقع، أو يعيش في عالم آخر تحت شمس أخرى وبحر آخر. يُسمعني شعرًا يكتبه في مائه العاشق، قال إنه يقدمه للأطفال كي يشبوا على حب الماء والبحر والطبيعة، فتصفو نفوسهم وتنجلي أفكارهم، فيروا الحق والخير والجمال، وفيه قال:

كلَّ صباح

أقفُ أمام البحر

أسألُ هذا الموج:

من أين يجيءُ الماء ..؟

هل من دمعِ الأمطارْ ..

أم من مجرى الأنهارْ ..؟

ولماذا كان الأزرق ..

هو لونُ مياهِ البحر ..؟

حتى البحر الأحمر ..

حتى البحر الأسود ..

لونُ مياهِهما زرقاء

ضَحِكَ البحرُ وقال:

الماءُ .. الماءْ

أصلُ الأشياءْ

أوَ لَمْ تسمعْ قولَ الرحمنْ

في آياتِ القرآنْ:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ ﴾

ومياهي الزرقاءْ

تَعكسُ حبَّ سماءِ اللهِ لذرَّاتي

تُعلنُ أني الماضي

والحاضرُ

والآتي

فأنا الماءْ

أصلُ الأشياءْ

حتى في الأحجار

طبعًا .. في الأشجار

يجري الماءُ الكوثرْ

انظرْ ..

في خارطةِ العالم

تجِدِ الماءَ ..

هو الأكثرْ.

أقول له: الشعراء يكتبون الشعر في النساء، وأنت تكتب الـشعر في الماء؟

يقول: أجمل النساء مخلوقات من المـاء، ألم تـسمعي عـن حوريـات الماء، أو جنيات البحر، لقد فاق جمالهن جمال نساء الأرض بكثير.

– وهل أنتَ رأيت واحدةً منهن، لكي تقارن بين جمالها وجمال المرأة في عالمنا الأرضي؟

– رأيتها بخيالي وفي أحلامي.

أضحك وأقول: أنا أخشى أن تكون مخاويًا لواحدة منهن.

- هههههه .. ربما!

يشغل بالي كثيرًا هذا الفتى. لم أجد أحدًا بالشركة يقول عنه كلمة سوء أو يتهمه في شيء، سوى مرة واحدة سمعت فيها إن إحدى الزميلات بالشركة، دعته إلى مكتبها بقسم الحسابات، وكان معظم زملائها وزميلاتها في إجازة، أظهرت له بعض مفاتنها، قامت بتعرية ساقيها بحركة متعمدة، فتحت أزرارًا علوية من بلوزتها فبرز جزء مهم من ثديها المستدير الذي كان بلا حمّالة. أخبرته أن هناك فتوى دينية تجيز إرضاع الكبير، وأنها تريد أن ترضعه لأنها تكنُّ له معزَّةً خاصة. أظهرت حلمة سمراء واسعة منتصبة مثل حبة الزبيب، لكنه لم يرضعها أو يمصها.

غادر مكتبها على الفور، لم يكن يريد أن يكتب عما حدث أو يحكي لأي أحد، ولكن ما فعلته وادّعته تلك الزميلة من أنه تهجم عليها وتحرَّش بها عندما دخل المكتب ولم يكن به أحد من زملائها، اضطره لأن يكتب شكواه ويرفعها للإدارة العليا.

كان من حسن حظه أن ساعي المكتب شاهد من على البعد كل ما حدث من خلال كوة خاصة يجلس بها دون أن يلاحظه أحد، وفي تحقيق إدارة الشئون القانونية أدلى الساعي بشهادته. وتم نقل تلك الزميلة إلى فرع صغير من فروع الشركة وخصم خمسة أيام من راتبها الشهري.

عادت صورة عمر ياسين ناصعة البياض، بعد محاولة تشويهها. ولأنه جرَّب الظلم والادعاء فقد كان متعاطفًا معي، وكنت متعاطفة معه. هل يرقى هذا التعاطف إلى مرتبة الحب والعشق، خاصة بعد هذه الرغبة التي اجتاحتنا في مرسى مطروح.

لا أنكر أنني أحس بالرعشة والنشوة تسري في جسدي كله، كلما تذكرتُني في حجرته بفندق "عروس البحر" وأنا في حضنه كالقطة المختبئة تحت لحاف دافئ وثير.

هذا الشعور شعرت به مرة واحدة فقط من قبل، لكنه ارتبط بذكرى مؤلمة، عندما اقترب مني خطيبي السابق، ومد يده يداعب نهدي ويمر على رقبتي بأنامله الرفيعة، ثم يعود إلى النهد المنتصب يحاول تقبيله، لكنه سرعان ما ابتعد عني، واضعًا تلك الأنامل الرفيعة على أنفه قبل أن ينسحب بسرعة ويغادر إلى الأبد.

تجمدت نشوتي، وتصلب الماء في عروقي، توقف الدم المنبعث إلى رأسي، كدتُ أُصابُ بالشلل. كرهتُه وكرهت نفسي وكرهت العالم، وازدادت عصبيتي، نظرت إلى نفسي في المرآة، رغبت في تحطيمها، بل حطمتها بالفعل.

انتشرت رائحتي الكريهة، عبَّقت البيت كله، أغلق الجيران نوافذهم، وشرفاتهم، وضع سكان منطقة "كليوباترا حمامات" كمامات على أنوفهم. هجر الناس مقاهي المنطقة، أغلقت المحلات قبل

مواعيدها المعتـادة. أصـحاب الـسيارات يلجـؤون إلى شـوارع جانبيـة هروبًا من الرائحة المنبعثة من شارعنا.

سائقو ترام الرمل لا يتوقفـون عنـد محطـة "كليوبـاترا حمامـات"، يعبرونها سريعًا، إشفاقًا على الركاب من نفاذ الرائحة. وصلت الرائحـة إلى نادي اسبورتنج الرياضي الذي يقع على مسافة محطة ترام واحدة مـن منزلنا. رأيـت رواد النـادي يخرجـون سريعًـا بـسيارتهم قبـل أن تـشتدُّ الرائحة التي بدؤوا يشمونها في الحي.

وددتُ لو أن عُمرَ جاء الآن واحتواني بين ضلوعه القويـة الحانيـة، وأقام العدل في أعـضاء جـسدي، ومنحنـى الطهـر والـصفاء ورعـشة القبلات الساخنة التي تحسسني بأنوثتي وكينونتي التي كـدتُ أفتقـدها منذ رحيل خطيبي الأول.

شيخ مغارة جعيتا

لم أعرف على وجه التحديد تاريخ مغارة جعيتا التي صار لها شهرة عالمية الآن، لكنها تبعد عن بيروت مسافة ٢٠ كم جهة الشمال، ذات تجاويف وشعاب ضيقة، وردهات وهياكل وقاعات نحتتها الطبيعة، وتسربت إليها المياه الكلسية من مرتفعات لبنان لتشكل مع مرور الزمن عالمًا من القباب والمنحوتات والأشكال والتكوينات العجيبة.

يعتبرها اللبنانيون جوهرة السياحة اللبنانية، وتوالى على اكتشافها عبر التاريخ رواد أجانب ومغامرون لبنانيون. ولكن مَن شيخ المغارة؟ هل هو مثل علي بابا؟ من المؤكد أن كليوباترا ذهبت إلى هناك مع أنطونيو أو بمفردها عبر سفنها وأسطولها المائي، فقد كان حكمها ممتدًّا إلى الأراضي السورية. هل تركت عطرًا هناك في تلك المغارة بالطريقة نفسها التي تركت بها عطرها في حمامها بمرسي مطروح؟

أسئلة كثيرة راودتني، أسئلة أكثر طرحتها عليّ هدى ونحن في مطار برج العرب في انتظار إقلاع الطائرة إلى مطار بيروت الدولي. كان لا بد لنا من السفر عن طريق إحدى الشركات السياحية التي تنظم رحلات إلى سوريا ولبنان. وحتى لا تُصادر الزجاجة العطرية بالمطار، أخذتُها من هدى ووضعتُها داخل كيس بلاستيك أسود وألحقتُها بحقيبة الملابس التي ستُؤخذ على السير.

وصلنا بيروت، أقمنا في أحد الفنادق أمام صخرة الروشة، لم تختلف بيروت كثيرا عن الإسكندرية في هذه المنطقة، حيث الشريط الساحلي الممتد بطول المدينة. كان ضمن برنامج الزيارات الداخلية في لبنان، زيارة مغارة جعيتا. لم يكن لنا هدف سوى الوصول إلى تلك المغارة. أخرجت الزجاجة، واتصلت على هدى في غرفتها، لتتهيأ للمغارة، التي لم تبعد سوى عشرين كم عن مكان إقامتنا.

لم تزل الزجاجة تبوح بعطرها وبسرها رغم أنها لم تُفتح بعد. في المغارة التي تتكون من طابقين سفلي وعلوي، تأبطتُ ذراع هدى وتهادينا في مشيتنا وسط مجموعة الزائرين الذين حرصوا على التقاط الصور التذكارية.

في نهاية أحد الممرات بالطابق السفلي، وجدتُ رجلًا عجوزًا ضخم الجثة ذا لحية بيضاء كثّة، كأنه خرج من التاريخ القديم، أو من حكايات ألف ليلة وليلة، يقف يحملق في الزائرين. عندما اقتربنا منه، وجدته يقبل علينا مُتهللًا مبتسمًا متشممًا روائحنا.

سلَّم عليَّ بحرارة وسلَّم على هدى، سألنا على الفور:

- أين الزجاجة؟

حاولت أن أشرح له الموقف، وجدتُه على علم بكل ما جرى منذ أن عثرنا على الزجاجة في حمام كليوباترا بمرسى مطروح وحتى وصولنا إلى المغارة. مَن أخبره؟ هل الماء العاشق؟

أخرجتُ الزجاجة من كيسها البلاستيكي الأسود، ففاحت رائحتها بشدة، جذبت كل من كان في المغارة.

قال الشيخ:

- اتبعني أنت وصاحبتك!

صَعَدَ إلى الطابق العلوي بالمغارة وسرنا حوالي ١٢٠ مترًا لنجد ممرات وأقبية عظيمة الارتفاع، وأشكالًا صخرية مبهرة. في نهاية أحد الممرات أخرج الشيخ إبرة معدنية طويلة بعض الشيء. أخبرني أنه بهذه الإبرة يستطيع أن يطعن الفلين سبع طعنات متتالية دون أن يسقط أي فتيت بداخلها. وعلى هدى إسماعيل أن تتعرى تمامًا أمامه وتتمدَّد ليدهن جسدها بكامله وكل تفاصيله وزواياه وانحناءاته وتعاريجه من منبت شعر رأسها إلى أخمصي قدميها.

قال:

- هي ستغيب عن الوعي قليلًا وأنا أُمرِّرُ يديَّ المباركتين على جسدها كاملًا، ولن تشعر سوى باللذة الخالصة في أثناء تدليك جسدها بعطر كليوباترا.

قال:

– إن كليوباترا نفسها كانت تتعطر بتلك الطريقة، فيسجد أمامها أنطونيو ويمنحها حكم البلاد التي يقوم بغزوها والانتصار على قائديها. كل رشة عطر يقابلها قطعة أرض.

خشيت أن أسأله: هل أنت من زمن كليوباترا؟ ربما يظن أنني أسخر منه.

قال:

– هذا لن يتم سوى في الليل. فالآن – ونحن في النهار – المغارة ممتلئة بالسائحين والزوار.

سألتُ هدى:

– ما رأيك؟

كانت في حالة لا تستطيع معها التفكير واتخاذ القرار. طلبت منه الزجاجة، على أن نفكر في الأمر، ونعود إليه.

رفض إعطاءنا الزجاجة، متسائلًا:

– لماذا أتيتم من الإسكندرية لمقابلتي؟

– لم نعرف أن هناك تعرية بالكامل، ودهانًا للجسد على الطريقة التي شرحتها لنا.

– ظننتُ أنكما تعرفان كيف كانت ملكتكم القديمة تتعطر لحبيبها. لكن لا تخشيا شيئًا فأنا لن أفعل مع ابنتي هدى مثلما كان يفعل أنطونيو مع كليوباترا. هذا عملك أنت يا عمر، ألستَ حبيبها؟

أخذ يشرح لنا أن هذا العطر التاريخي الذي عثرنا عليه، يجب ألا يكون هناك حاجز بينه وبين الجسد، من ملابس خارجية وقطع داخلية، ولا حتى جورب أو حذاء خفيف، وإلا فَقَدَ مفعوله. إنه يلتصق بالجلد بمجرد ملامسته، ولا تستطيع أي قوة زحزحته، ولا تفنى رائحته، حتى الماء والصابون والشامبوهات والكريمات لا تستطيع إزالته أو مقاومته. ويظل يفوح ويفوح عشرات السنين. كنت أتمنى أن تعيش كليوباترا على أرضنا كثيرًا حتى نرى متى ينتهي تأثير هذا العطر الخطير الذي توصلتْ له بعد العديد من التجارب على الكثير من الأعشاب والزيوت ومياه الورود والأزهار في واحة سيوه وفي شواطئ مطروح البكر وفي جزيرة قبرص. إنه أغلى عطر في العالم على مدى تاريخه الطويل، والأكثر تأثيرا حتى الآن. فينوس وإيزيس وملكات جمال العالم وشركات العطور في باريس ولندن ونيويورك، لم يتوصلوا إلى تركيبة هذا العطر الذي عثرتم عليه. ولهذا أتوقع مفاوضات معكم على البقية الباقية بالزجاجة الملكية العتيقة.

كنتُ مذهولًا مما أسمع، وكانت هدى في حالة عدم اتزان، ولخبطة عقلية، فلم تستطع التفوه بكلمة.

– ما بك؟

- لا أدري، لا أستطيع التفكير والتحدث.

- يجب أن تقرري، إمام المغارة يطلبك عارية تمامًا، ولكنه يحصّنك.

- .....

- عدم ردك، يعني الموافقة؟

- ليس أمامنا حلٌّ آخر.

قال الشيخ بلهجة حاسمة مُنهيًا اللقاء:

- ميعادنا في الثامنة مساء اليوم.

طبيب ومريضة

عُدنا إلى الفندق بدون الزجاجة الملكية. السؤال الذي يحيرني: كيف سيرى هذا الرجل الغريب جسد هدى، كيف ستتعرى أمامه، كيف ستخلع ملابسها وهي لا تزال عذراء؟

قالت هدى:

- أليس المريض يتعرى أمام طبيبه؟

- ولكن إمام المغارة ليس طبيبًا.

- فلتعدَّه طبيبًا، وأنا المريضة التي لا بد أن تُشفى.

- أراكِ وافقتِ عن قناعة.

- كما قلتُ لك: ليس لديَّ حلٌّ آخر، أو أعود إلى رائحة البيض الممشش، واللحم الزنخ.

- ولنفترض أنه فعل مثل راسبوتين بنساء القيصر؟

- لا تخَشَ شيئا، أنا مسئولة عن نفسي.

نسيتُ أن أسأل الشيخ، هل سأكون حاضرًا أمام ذلك المشهد الرهيب. طرحت السؤال على هدى، فضَّلتْ ألا أكون حاضرًا.

قمتُ باستدعاء صورة الشيخ الموغلة في التاريخ، إنه بالفعل أشبه براسبوتين. تصورته وهو يعري هدى، لم أدرِ هو الذي سيعريها أم هي التي ستعري نفسها.

في مرسى مطروح، تعرت قليلًا أمامي، كنتُ أنا البادئ ثم أكملت هي تعريتها في حدود معينة، واغترفنا من اللذة.

هذا الشيخ يقول إنها ستشعر بلذة خالصة، وسوف تغيب عن الوعي، هل سيستغل غيابها عن الوعي ويضاجعها؟

رآنا مشرف الرحلة ونحن عائدين بمفردنا إلى الفندق، سألنا: هل سنخرج مع بقية الوفد في السهرة المسائية بشارع الحمرا؟ قلت له: لدينا موعد من أحد الأصدقاء اللبنانيين. اعتذرنا عن شارع الحمرا.

تخفّفت هدى كثيرًا من ملابسها في المساء، لم تضع حمالة النهدين، فكان نهداها يترجرجان تحت بلوزتها الحمراء التي لم تلبس شيئًا تحتها، لم أدرِ هل ارتدت شيئًا تحت بنطالها الجينز، أم لا؟ عيناها زائغتان رغم كحلها القوي، خدّاها حمراوان. لم أدر خجلًا أم وضعت عليهما الكثير من المساحيق. يدها مشتعلة أحيانًا وباردة كالثلج أحيانا أخرى.

شعرت باضطرابها، حاولت التخفيف عنها. قلت لها:

- هو طبيب يداوي الروائح، فلا تنزعجي.

لاحظت دموعًا في عينيها السوداوين، كأنها ذاهبة إلى معصية غصبًا عنها.

أدرِكُ تمامًا حجم معاناتها، ومعنى أن يرى شخص ما مهما تكن منزلته جسدها البكر. إنها لحظة مغامرة حقيقية.

وصلنا المغارة في الثامنة، وجدناه في انتظارنا بالخارج، قادنا إلى حجرة حجرية بعيدة بالطابق العلوي، شممنا فيها عطر كليوباترا من على البعاد. دخل ثلاثتنا الحجرة، وجدت طاولة حجرية، هي ما سوف تتمدد عليها هدى بعد أن تتجرد من ملابسها. أخرج الزجاجة من جيب سرواله، والإبرة المعدنية، أمسك الزجاجة بيده اليسرى، والإبرة بيده اليمنى، طعن الفلين سبع طعنات، بعد كل طعنة تقفز قطعة فلين إلى الخارج، إلى أن انتهى تمامًا. ابتسم ابتسامة الواثق المنتصر، طلب مني الخروج، وأشار إلى هدى أن تخلع كل ملابسها وتتمدد على الطاولة الحجرية.

لم يكن هناك باب كي أخرج منه، لكن ابتعدتُ قليلًا، تحول جسدي كله إلى عيون وآذان. تمددت هدى على ظهرها، وبدأ يسكب العطر الملكي على شعرها ووجهها ورقبتها، ثم على نهديها وفي أذنيها، شعرت أن الكون كله يتشمم تلك الرائحة النافذة. يدلّك نهديها وما بين النهدين وأسفلهما، هدى استسلمت تمامًا وراحت في شبه غيبوبة.

نزل إلى منطقة الوسط وسكب من العطر في ثقب صرتها، ثم صعد بيديه إلى ما تحت الإبطين، وأخذ يسكب ويدلك. كانت هدى قد نزعت شعر الإبطين استعدادًا لتلك اللحظة.

نزل إلى ما بين الفخذين، وباعد بين كل فخذ والآخر، سكب من العطر في تلك المنطقة المحرمة. انتفضت هدى من النشوة. كأنها تمارس الجماع فعلًا. نزل إلى رجليها وأصابع الرجلين يدلكهما بالعطر.

طلب منها بهدوء ونعومة أن تنقلب على وجهها، استجابت له كأنها منومة تنويمًا سحريًّا أو مغناطيسيًّا، أخذ يسكب على ظهرها وأسفل ظهرها، حتى وصل إلى الردفين، فسكب في منتصفهما، وأخذ يدلك، ويده تغوص بالداخل، ثم صعد إلى شعر الرأس فأخذ يسكب ويدلك في القفا، يسكب ويدلك في الشعر. تحول شعرها إلى حديقة غناء ذات عطور براقة.

لم يستغرق الأمر أكثر من ربع الساعة، وهدى منومة تنويمًا مغناطسيًّا. انتهى الرجل من عمله، وحمدت الله أنه لم يزد عن ذلك، فعلًا طبيب يعالج مريضة بكل إخلاص وأمانة.

طلب منها النهوض، لم تستطع، أعطاها ملابسها، لم تستجب. هل أتدخل الآن، أم أنتظر حتى يناديني؟ ناداها باسمها، لم ترد عليه. قومي يا ابنتي هدى، لم تقم، ابتسم وقال:

– قومي أيتها الملكة المصرية العظيمة.

بدأت تستجيب وتقوم في رخاوة وطراوة. لم تتحدث، تناولت ملابسها، ارتدتها وهي منومة. ناداني شيخ المغارة. قال:

– انتهى عملي. إنه العطر الأصلي للملكة كليوباترا بالفعل.

الماء العاشق لم يكذب عليَّ. أخبرني أن الزجاجة لا تزال ممتلئة إلا من بعض القطرات التي سكبها على جسد هدى. طلب مني أن أمنحه قليلًا من العطر ثمنًا للعملية. كنت سأسأله كم يتقاضى، لكن أمام منظره وهيبته خشيت، لكنه ها هو يقدر أتعابه بقليل من العطر الملكي.

أحضر زجاجة صغيرة، سكب فيها بعض القطرات، وضع عليها سدادة من الفلين، كما أحضر سدادة فلين أكبر قليلًا وأحكم بها فوهة زجاجتنا. أمرنا بالانصراف، وحذر من فتح سدادة الفلين الجديدة مرة أخرى دونه.

أخذت هدى شبه المنومة وخرجنا. وجدنا خارج المغارة جموعًا من الناس، أغلبهم من النساء والفتيات يستنشقون عطرًا لم يستنشقوه من قبل، ولا يعرفون مصدره. حين مررنا أمامهم تعالت أصواتهم ابتهاجًا ونشوةً من الرائحة التي كانت عليها هدى. قاموا بتحيتنا دون أن نعرفهم ويعرفونا.

قالت إحدى اللبنانيات:

– شو ها الرائحة. بدِّي منها.

قلتُ لها مازحا:

– ادخلي المغارة وقابلي شيخها.

في مطار برج العرب

الخروج من لبنان، أسهل من الدخول إلى مصر.

في رحلة العودة إلى مطار برج العرب الدولي بالإسكندرية، استوقفنا مأمور الجمرك. طلب فتح حقيبة الملابس الكبيرة. مَدَّ يده إلى جوانبها. سألني:

- ماذا معك؟

- لا شيء سوى ملابسي وبعض الهدايا الصغيرة.

- من أين أنت قادم؟

- من بيروت.

- كم مدة سفرك؟

- أربعة أيام في رحلة مع فوج سياحي.

- هناك رائحة نفّاذة تصدر من حقيبتك!

- نعم .. إنها زجاجة عطر اشتريتُها من هناك.

- أين هي؟

- أخرجتُها من الكيس البلاستيك الأسود، وقدمتها له.

- يبدو أنها غالية جدًّا. رائحتها تُعبِّق المطار.

- .....

- حمد لله على السلامة .. أسفين على الإزعاج.

كانت هدى ورائي وعندما جاء دورها للتفتيش، قال لها مأمور الجمرك:

- أشمُّ الرائحة نفسها التي شممتُها عند الأستاذ (وأشار إليَّ).

- نعم .. اشترينا ماركة واحدة من بيروت.

- كم ثمن العلبة؟

ارتبكت هدى قليلًا ثم قالت:

- زميلي (وأشارت إليَّ) هو الذي كان يحاسب على تلك الهدايا.

ابتسم مأمور الجمرك قائلًا:

- حمد الله على السلامة.

خرجنا من مطار برج العرب، ونحن نحمد الله على أن مأمور الجمرك لم يواصل تحقيقاته معنا. طلبتْ هدى إسماعيل مني كل ما كتب عن كليوباترا من كتب تاريخية ومسرحيات، وأفلام ومسلسلات.

– سآتي لك بالكتب التي عندي، أما الأفلام والمسلسلات فيمكنك مشاهدتها من خلال يوتيوب على الإنترنت إذا كانت مرفوعة على أي موقع سينمائي أو فني.

أوصلتها إلى كليوباترا حمامات، وأكملتُ رحلتي إلى سيدي بشر، وهناك وجدت الماء العاشق سعيدًا يرقص ويضيء، يعلو ويهبط، يروح ويجيء، مُنتشيًا بما تحقَّق من إنجاز وإعجاز.

قال:

– صاحبتك ستصبح من المشهورات عالميًّا. وأنت ستصبح من الأثرياء.

– هههههه .. كيف؟

– أنت لديك كنز كبير في زجاجة صغيرة، هي زجاجة الحظ والعطر والسحر التي ستجعلك من الأثرياء في العالم.

أخذتُ أفكر في كلامه، ثم رحتُ في سُباتٍ عميق.

البهنانة

ذهبتُ إلى العمل في صباح اليوم التالي، لم يكن هناك حديث في الشركة سوى عن رائحة هدى، وجمال هدى، وإشراقة هدى، وإطلالة هدى. أستمعُ كثيرًا، ولا أتكلم. جاءني من وصفها بال- "عِنْفِصة"، سألني:

- ما الذي جرى؟

- جرى إيه؟

- زميلتنا هدى ألم تشم رائحتها الجديدة؟

- ولا القديمة!

- لقد حدث تحول خطير جعل رائحتها من أفضل الروائح التي شممتها في حياتي.

– نعم أنت خبير في الروائح وأسمائها. ماذا تسمي رائحتها الجديدة؟

– ليست مسكًا ولا رحيقًا ولا أريجًا ولا طِيبًا ولا بخورًا ولا نسيمًا ولا عبيرًا ولا عنبرًا. إنها فتاةٌ بَهْنانة (والبَهنانة صفةٌ تُطلق على المرأة إذا كانت طيبة النَّفَسِ والريح). إنها خليط من الريحان والخَزَام والفل والياسمين والورد والزَّيْنَب والكُرْكُب والزعفران والعَرْطَنِيثا (أصل شجرة بخور مريم) والبَهْرَامَج والدَّاح (الخلوقُ من الطِّيب) والرَّند والنَّد والقِنديد والكاذي والخطَّار والخُمْرة والصَّمْر والكافور والمَرْدَقوش (طيب تجعله المرأة في مُشطِها يضرب إلى الحُمرة والسواد). إنها ضمَّخَت جسدها ولطَّخته ومَضَخَتْه وخَمَرْته وصَمَرْته بالطِّيب حتى كأنه يقطر مسكًا وبعضًا من هذا الخليط، ففاحت رائحتها الذكية الحادة على هذا النحو الذي نشمه الآن. إنها تفور عِطرًا وتفوح مِسكًا وطِيبًا، كأنها تبخرت ليلًا بالعود فسطعتْ رائحتها وانتشرت هكذا بالنهار. أنا الخبير بالعطور والروائح وكل السوائل وأسمائها أعلن الآن عجزي عن معرفة اسم عطرها ومسكها. لديَّ صديق يملك مصنع عطور في العطارين، سأحدثه في أمر رائحة هدى، وربما استدعيه ليشمها دون أن تعرف هي بطبيعة الحال.

كان زميلنا بهجت الدسوقي (الذي يشبه الممثل الراحل يوسف داود) يقول كل هذا وأنا أسجل وراءه ما يقول، فربما أحتاج إلى مثل هذه المفردات والكلمات في مستقبل الأيام. يبدو أن نبوءة الماء العاشق سوف تتحقق.

قلت لبهجت:

- ربما يحتاج الأمر إلى معرفة موضع العرق الجديد في جسدها؟

- هذه مسألة صعبة، ربما إذا كانت متزوجة لسألنا زوجها في جلسة حميمية خاصة. وفي حديث مفاجئ قال:

- ما رأيك أن تخطبها؟ فهي من الواضح أنها تحمل لك ودًّا وتُكِـنُّ لك حُبًّا.

نظرتُ إليه مليًّا وقلتُ:

- زواج مصلحة؟

- لا .. زواج عن حب، أنا متأكد أنها تحبك.

- ربما كان هذا قبل تلك الرائحة الجديدة.

- يا أخي نقدم السبت قبل الأحد.

- أفكر في الأمر.

هل؟

هل أتزوجها فعلًا؟ ولم لا .. خاصة أنني كنتُ في كل خطوة معها، وقفت بجانبها عندما تنكَّر الكل لها وابتعدوا عنها بسبب رائحتها القديمة. أطلقوا عليها الكثير من الألقاب والمسميات والصفات، مثل الوَذِرة (المرأة الكريهة الرائحة) الصَّمَكْمَك (الخبيثة الريح) الزَّخْماء (المنتنة الرائحة) وغيرها.

ثم أنا الذي كشفت عن مكان الزجاجة الملكية التي لا يعرف أحدٌ عنها شيئًا سوى الماء العاشق وشيخ مغارة جعيتا. قضيتُ أيامًا جميلة معها في مرسى مطروح وفي بيروت، وشاهدتها كما ولدتها أمها في المغارة. جسدها شهي ومتناسق وجذاب، ويتعطر الآن بأجمل رائحة في العالم. إذًا عليَّ أن أُقدِّمَ السبت كما قال بهجت الدسوقي.

كليوباترا الجديدة

بـدأت ملامـح وجـه هـدى إسـماعيل تتحـول إلى ملامـح وجـه كليوبـاترا، خاصـة بعـد أن أسـدلت قُـصةً عـلى جبهتهـا، وأصـبحت تسريحتها مثل تسريحة كليوباترا تمامًا، وكحل عينيهـا مثـل كحـل عينـي كليوباترا، وزجّجت حاجبيها كما كانت تفعل النساء في مصر القديمـة. يبدو أنها شاهدت صورها والأفلام والمسلسلات التـي أُنتجـت عنهـا، فقررت أن تقلدها، وتصبح "كليوباترا الجديدة" التي تـسكن في منطقـة "كليوباترا حمامات" بالإسكندرية. ويا لها من مصادفة عجيبة!

هل روح كليوباترا السابعة البطلمية، ابنة بطليموس الثـاني عـشر، حلّت في روح هدى إسماعيل الإسكندرانية، بعد أن تعطرت بعطرهـا؟ قرأتُ الكثير عن تناسخ الأرواح، في كتـب فلـسفية، وأعـمال قصـصية وروائية، لكن لم أعاين تطبيقات لتلك الأفكار من قبـل. هـل المطلـوب

مني أن أتحوَّل أنا الآخر إلى أنطونيو لنبعث التاريخ من جديد، ونُعيد صياغة الرواية؟

هدى قبل تعطرها كانت فتاة عادية لا تهتم كثيرًا بشعرها الأسود اللامع، كانت لا تتبع كثيرًا الموضات والقصّات التي نراها في المجلات والبرامج التلفزيونية، كانت أحيانًا تسرحه إلى الوراء فيكون وجهها مستطيلًا، أحيانًا تفرقه من المنتصف فيكون وجهها مثلثا، أحيانًا تعتني به أكثر فيكون وجهها مربعًا.

بعد أن أصابتها الرائحة الكريهة، تحجبت لعدة أسابيع، فبدأت زميلاتنا المحجبات يتعاطفن معها ويدافعن عنها، ثم خلعت الحجاب، فأثارت زميلاتنا المحجبات بالشركة وانقلبن عليها، وأَشَعْنَ أن رائحتها الكريهة من غضب الله عليها. وأطلْقنَ عليها مسميات وألقابًا سمعنها من بهجت الدسوقي مثل: عَطِينة، غسَّاقة، لَخنَاء، زَخْماء، وغيرها مما يشير إلى الرائحة المنتنة. الآن ماذا سيقلن بعد هذا التحول الجذري في رائحة هدى وشكلها الذي أصبح أكثر شبهًا بكليوباترا الحقيقية، كما عرفناها في الكتب القديمة؟

عرض فرنسي

لاحظ الماء العاشق أنني أفكر كثيرًا في هدى إسماعيل، أحادثها كثيرًا في التليفون المحمول والأرضي، وأنها أحيانًا تزورني في شقتي بالدور الأرضي في العمارة المطلة على بئر مسعود بسيدي بشر. اقترحَ عليَّ الاقتراح نفسه الذي اقترحه الدسوقي، متنبئًا أنني سأغادر تلك الشقة إلى شقة أوسع وفي دور أعلى، وربما لا يستطيع أن يقيم معي في شقة جديدة. دهشتُ من هذا التفكير ومن محاولة قراءة المستقبل. هل الماء يقرأ المستقبل؟ إنه الحياة، والحياة فيها الماضي والحاضر والمستقبل. ذلك الماء العاشق، أهو ماء مجرد أم روح عاشق سكنت قطرات الماء الذي تدفق فجأة إلى بيتي في يوم من أيام الشتاء السكندري المنهمر بالمطر؟

ربما يكون روح أنطونيو، والمطلوب أن آتي له بكليوباترا أو بروحها وعطرها وسحرها، فينتشي بها. إنه عالم الأرواح الهائمة في الكون ..

تتلاقى وتفترق، وتنتقل من جسد إلى جسد، ومن عصر إلى عصر، ومن عطر إلى عطر، ومن سحر إلى سحر.

لماذا لا يستطيع أن يقيم معي في شقة جديدة؟ هل هو من ساكني الأدوار السفلية أم الأرضية فقط؟ أم لا يريد وجوده معي بعد أن أتزوج هدى إسماعيل، إذا قُدِّر لي أن أتزوجها؟ وجدني حائرا، فأراد أن يخفف عني. أخذ يغني:

باحب اتنين ســـوا يا هنايا في حبـــهم

المـــيه والهـــــوا طول عمري جنبهم

ذكرني دون قصد بمرسى مطروح، وذكرى العشق والغرام في فندق "عروس البحر".

اتصلت بهدى وطلبت مقابلتها. جاءت بعطرها وأريجها وعبقها وشذاها، وطابور من الفتيات يسرن خلفها دون وعي أو إرادة. دعوتهن للدخول، فأفقن وانتبهن ورجعن بعد أن شممن العطر الذي لا مثيل له:

قالت لي:

- جميل أن اتصلت بي، لأني كنت أريدك في أمر مهم؟

- خير ..!

- شركة عطور عالمية اتصلت بي من باريس!

- ماذا تريد؟

- تريد أن أمنحهم سر عطري حصريًّا!

- مقابل؟

- مقابل مليون يورو، وإعلان تلفزيوني أظهر فيه.

- عرضٌ مغرٍ.

- نعم!

- ماذا قلتِ لهم؟

- قلتُ للفتاة المغربية التي اتصلت بي من باريس أن تمهلني أيامًا للتفكير. قالت: لا تتأخري في الرد علينا. سنعاود الاتصال بعد يومين. مدام أديل ترسل لك التحية والسلام.

- كيف عرفوا بهذا العطر. هل شمُّوه في باريس؟

تضحك هدى وتقول:

- قد يكون للشركة فرع في الإسكندرية، وأخبار رائحة العطر وصلت لهم.

- ممكن، فنحن نعيش في عالم مفتوح، والأخبار تتسلل بسرعة البرق في أرجائه.

- وأنتِ ماذا تنوين؟

- لهذا جئتُ إليك، لنتخذ قرارنا معًا.

- ولهذا أيضًا اتصلت بك، لنتخذ قرارًا معًا.

- خير .. اللهم ما اجعله خير.

- خير إن شاء الله .. فقط .. أريد .. أريد أن أتزوجك!

- يااااه .. أخيرا قلتها يـا عمـر .. أنـا سـعيدة جـدًّا .. فرحانـة .. مبسوطة .. إنه خبر أفضل ألف مرة من خبر شركة العطور الفرنسية.

- إذن أزوركم في البيت لإنهاء شكليات الخطوبة والزواج.

- والعرض الفرنسي؟

- يجب أن نحسن التفاوض معهـم.. احنـا داخلـين عـلى زواج .. هههههه.

- فعلًا يا حبيبي عمر.

- أحبُّك يا كليوباترا.

تضحك وترتمي في حضني:

- أحبُّك يا أنطونيو.

كليوباتـــــــرا زوّديني قُبلـةً من ثناياكِ العذابِ الشَّبِمات(*)

أقبلها قبلة طويلة وأقول:

عجبٌ .. عيني لا تقـ ـوى على هذا الضياءِ

هـــــذه كـــــفُّ إلهٍ جاءَ في زي النساءِ(**)

(*) من شعر أحمد شوقي في "مصرع كليوباترا".

(**) من شعر أحمد شوقي في "مصرع كليوباترا".

ليلى علوي

دخلتُ مكتبي بالشركة، وجدتُ بهجت الدسوقي ينتظرني، كان على علم باتصال شركة العطور الفرنسية بهدى. عرفت أنه وراء هذه المكالمة.

قال: تحدثت مع صديقي وليم شكري صاحب مصنع العطور في العطارين عن الرائحة المثيرة التي عليها هدى، ودعوته إلى هنا ولم أخبرك.

رأى هدى دون أن تراه. كان يتشمّمها من على بعد. انجذب إليها مثلما تنجذب القطط إلى رائحة الأسماك. مَرَّ بجوارها، تشمّمها عن قرب. قال لي: صدقت!

أخبرني أنه سيعرض الأمر على شركة عطور عالمية في باريس يتعامل معها.

- فعلا اتصلوا بها، وهي تفكر الآن.

- لا مجال للتفكير. إنه عرض مغرٍ جدًّا.

- من حقها أن تفكر. منحوها فرصة يومين للتفكير.

- هل تعلم أن الفنانة ليلى علوي تريد مقابلتها!

- لا أعلم .. ولم تحكِ لي هدى.

- ليلى علوي كلما جاءت إلى الإسكندرية تمر على وليم شكري لأنها تثق بعطوره التي يجلبها من باريس، كما أنه أعطاها عنوان مقر الشركة في باريس، لتزوره إذا ذهبت إلى هناك. حدثها وليم شكري عن عطر هدى إسماعيل ورائحتها المتميزة. طلبت منه أن يحدد موعدًا معها في أثناء زيارتها المقبلة إلى الإسكندرية، فأنت تعلم أن ليلى علوي مجنونة عطور.

- إذن نحن الآن في انتظار عرض الشركة الفرنسية، وزيارة ليلى علوي.

- واضح أن الأيام القادمة حبلى بالكثير. ونريد أن نضع جدولًا زمنيًّا أو خطة عمل حتى لا تتداخل الأمور.

- فعلًا .. إن الموضوع خرج من أيدينا ليصبح "شغل بيزنيس على كبير". قد نفكر فيما بعد في تأسيس مكتب أو شركة لإدارة مشاريعنا، إذا سارت الأمور على هذا النحو.

قبل أن تدخل هدى إلى مكتبي. قلت لوليم:

- إنها قادمة.

قال:

- أشمُّ عطرها فعلًا.

بعد دقيقتين دخلت هدى كأنها كليوباترا تذهب إلى رعاياها في محل عملهم، رغم أنها أقل مني ومن بهجت الدسوقي في الدرجة الوظيفية، ولكن عطرها منحها تميُّزًا خاصًّا، أخرست به نميمة زميلاتها وخاصة المحجبات اللواتي هاجمنها بعد أن خلعت الحجاب.

الكل الآن يمنحها تقديرًا واحترامًا، وقد شعرت هي بذلك فأرادت أن تكون على قدر هذا الاحترام والتقدير والثقة، فبدأت تثقف نفسها وتقرأ كثيرا وتشاهد أفلامًا ومسلسلات عربية وأجنبية وتذهب إلى معارض الفنون التشكيلية، وأوبرا الإسكندرية (مسرح سيد درويش)، ومؤتمرات مكتبة الإسكندرية وندواتها، بل انتظمت في دورة لتعليم مبادئ اللغة الفرنسية. أحيانًا أكون معها في تلك الندوات وأحيانًا لا أكون. أحيانًا تأتي إلي في سيدي بشر، وأحيانًا أذهب إلى بيت أسرتها في كليوباترا حمامات. نتحدث، نتحاور، نتناقش، نفكر، نحلم، نخطط، نتبادل العناق والقبلات على مرأى من الماء العاشق الذي يبتسم وأحيانًا ينسحب في هدوء إلى ركنه الركين.

أكاد أجزم أن هدى إسماعيل أصبحت شخصية معروفة ومشهورة الآن، ليس فقط بعطرها وجمالها وشكلها البطلمي، ولكن بثقافتها

ورجاحة عقلها وتقديرها للأمور. وقد انعكس هذا أيضًا على وضعها وسط عائلتها. قالت لي والدتها:

- لقد تغيرت هدى تماما منذ أن عرفتك يا عمر يا ابني.

- الحمد لله .. سبحان مغير الأحوال، ومبدِّل الروائح والأشكال.

تبتسم الأم، وتذهب لعمل فنجان قهوة لي.

يبدو أن هدى تريد أن تصبح شخصية كليوباترية في القرن الحادي والعشرين.

سألتها:

- هل علمتِ بزيارة ليلى علوي؟

على الفور قال الدسوقي:

- أنت حرقت المفاجأة .. أنا لم أخبرها بعد.

قلت له:

- إذن أخبرها قبل أن تمتد النار إلى مكتبي.

فرحت هدى بهذا الخبر، وقالت إنها تحب ليلى علوي كثيرًا، وشاهدت كل أفلامها، وتتمنى أن تراها فعلًا، وتتحدث معها.

فكرتُ أن أستثمر ليلى علوي في مشروعاتنا القادمة بعد الاتفاق مع شركة العطور الفرنسية، وخاصة في مجال الإعلان التلفزيوني عن العطر القادم. ولكن سأرجئ هذا إلى ما بعد المقابلة بينهما.

بئر مسعود

الصيف يلملم الآن أوراقه ويرحل، ينسحب مهزومًا أمام الخريف الذي أحبُّه كثيرا، أكثر من الربيع والشتاء والصيف. عندما يبدأ الخريف في الإسكندرية يتناقص عدد المصيفين ويقل الازدحام في المدينة وخاصة في سيدي بشر وميامي، وفي الغالب يرحل آخر مصيف مع بداية العام الدراسي الجديد، فمعظم المصيفين في الإسكندرية الآن إما مدرسون أو أولياء أمور.

مضى الزمن الذي كان فيه الفنانون والمشاهير في مختلف الأعمال يقضون صيفهم في الإسكندرية، أسرة الرئيس جمال عبد الناصر كانت لا تصيف إلا في الإسكندرية، عبد الحليم حافظ كان يمتلك كابينة في ميامي، عماد حمدي له عمارة هناك، وكذلك محمد عبد الوهاب. نادية لطفي وسعاد حسني وفاتن حمامة وشادية وغيرهن كنّ يترددن دائمًا على

الإسكندرية ويمثلن أفلامهن في "فندق البوريفاج"، الكابتن محمد لطيف لاعب الزمالك والمعلق الرياضي الشهير كان يمتلك شقة في مساكن الأزاريطة تطل على حدائق الشلالات. الآن الكل يذهب إلى الساحل الشمالي أو شرم الشيخ والغردقة.

أصبحت الإسكندرية مصيفًا من الدرجة الثالثة، رغم ذلك يظل الازدحام سمة أساسية، ورحلة اليوم الواحد من المناطق الريفية المجاورة أهم ما يميز صيف الإسكندرية الآن، على الرغم من وجود المعمورة والمنتزة وشواطئ أخرى راقية.

كافتريات (أو كافيهات) ومقاهٍ كثيرة فتحت أبوابها وكراسيها وطاولاتها للمصيفين، تستعدُّ الآن لتخفيض درجة استعداداتها بعد أن تراجع عدد المصيفين بدخول الخريف.

أحد أصحاب الكافيهات كان يريد أن يشتري شقتي بالدور الأرضي ليحولها إلى كافتيريا جديدة على الرصيف المقابل للبحر، عرض مبلغًا كبيرًا يمكّنني من شراء شقة أوسع في منطقة أخرى ولكن رفضتُ.

ما يميز شقتي – التي ورثتها عن والدي – أنها تقع أمام بئر مسعود مباشرة، وفي مثل هذا الجو بعد رحيل المصيفين يحلو لي أن أجلسَ على حافة البئر، أتأمل مياه البحر تجري في عمقه قادمة من البحر إلى البئر، عائدة إليه.

البئر كانت فجوة داخل كتلة من الصخر، عمقها نحو ٥ أمتار، وعرضها نحو متر، تربط قناة (مجراة) بين سطحها وبين ماء البحر. وهناك أكثر من تفسير شعبي لتسميته بهذا الاسم "بير مسعود"، منها أن رجلًا من الصعيد اسمه مسعود هرب من ثأر واختبأ في البئر إلى أن مات وأخذته حوريات البحر. البعض قال إن هذه البئر سُميت باسم رجل صالح من تلامذة القطب الصوفي سيدي بشر. قال آخرون إن مسعودا كان تاجرًا للمخدرات هرب من الشرطة واختبأ في البئر، وظل رجال الشرطة يبحثون عنه إلى أن وجدوه حيًّا في البئر، لما رفض الخروج منه، أردوه قتيلًا، ثم لم يجدوا جثته بعد ذلك.

ذهب البعض إلى أن هذه البئر كانت مقبرة يونانية، دفن فيها بعض اليونانيين في عصر البطالسة، حيث كانت المقابر وقتها تقع على البحر. بينما يعتقد البعض أن مسعودا هو العبد الأفريقي الأسود الذي هرب من نخّاسه وظهر زمن خلافة الحاكم بأمر الله (٩٨٥ – ١٠٢١ ميلادية)، وكان يمتلك جسدًا فارغًا وآلة جنسية ضخمة، استطاع الحاكم بأمر الله أن يوظفها ضد التجار الجشعين وأصحاب المحلات الذين يغشون في المعيشة، ويرفعون الأسعار أو يخبئون البضائع ليفتعلوا الأزمات، فيسلط الحاكم بأمر الله مسعودا عليهم ليأتيهم من الخلف أمام أعين الناس والتجار الذين يشاهدون وينظرون حتى يفرغ مسعود بعد وقت قد يقصر أو يطول، مما قلّل من جشع التجار، خوفًا من الفضيحة والعار، فاعتدلت الأسعار، وتوافرت البضائع في الأسواق.

قال ابن كثير في "البداية والنهاية" عن أفعال الحاكم بأمر الله: "ومن أفعاله (أنه كان يعمل الحسبة بنفسه، فكان يدور بنفسه في الأسواق على حمار له - وكان لا يركب إلا حمارًا -، فمن وجده قد غشَّ في معيشة، أمر عبدًا أسود معه يقال له مسعود، أن يفعل به الفاحشة العظمى)".

وذكر ابن إياس في "بدائع الزهور في وقائع الدهور" أبياتًا من الشعر الركيك قيلت في مسعود على سبيل المزاح والدعابة، فقال أحد الشعراء:

إن لمسعود آلةً عظُمت كأنها في صفات طومارِ

تشقّ أدبار من بهم جرمٌ أصعب من درة بمسمارِ

وذات مرة وقع تاجر ضعيف البنية، هشّ التكوين الجسدي في قبضة مسعود، وعندما همّ مسعود أن يفعل به الفاحشة، مات الرجل بين يديه خوفًا ورعبًا وهلعًا، فهرب مسعود وأطلق ساقيه للريح، وأخذ يعدو أيامًا في اتجاه الشمال الغربي حتى وصل إلى الإسكندرية، وأقام في البئر خوفًا من أتباع الحاكم بأمر الله الذي توعد أن يخصيه إذا لم يعد.

بعد أيام هدأت نفسه، وارتخى عضوه قليلًا، وهناك عاينته حورية البحر، وأعجبها جسده وقوته وآلته، فتجسدت له في صورة امرأة في غاية الحسن والبهاء، وجربته بعد أن أطعمته أشهى المأكولات البحرية وسقته أعتق المشروبات الروحية. ثم عقدت اتفاقًا معه أن تظهر له كل

ليلة لمدة شهر قمري، وإذا أنجبت منه، يصبح مسعود سيدًا على البحار ويعيش معها في قصرها الذي تمتدُّ أعمدته تحت الماء بين البئر الذي سمي باسمه وصخرة ميامي.

عمومًا فإن البعض يعتقد أن هذه البئر تجلب الحظ والبركة، لذا يلقي فيها البعض نقودًا معدنية وخاصة من تريد عريسًا، أو من تريد إنجاب طفل أو طفلة، أو من يبحث عن عمل، أو يشفى من مرض، أو من له أمنية ما يود أن تتحقق.

هؤلاء الذين يلقون نقودهم في البئر لا يعلمون أنهم بعد أن يغادروا البئر يغوص بعض الشبان بداخله ليجمعوا ما بها من نقود ملقاة به، ينزلون إلى البئر ويخرجون من البحر.

ولكن لم يعلم أحد أن في هذه البئر سكنت أم الماء وبناتها، وامتدت قاعتها الرئيسية في قصرها حتى أسفل صخرة ميامي. وأن كليوباترا جاءت هنا، وعمّدتها أم الماء لتكون ملكة على مصر قبل أن تتفق مع قيصر الروم على تنصيبها ملكة على الوادي والدلتا وبحار مصر، وأن لهذه البئر ممرًّا سريًّا في اتجاهين الاتجاه الأول؛ بري يقود إلى واحة سيوه، وبالتحديد "معبد آمون"، و"عين كليوباترا"، والممر الثاني؛ بحري يقود إلى بيروت ثم إلى "مغارة جعيتا".

لا يعرف الذين يلقون نقودهم المعدنية، أنها ستذهب عن طريق الممر الأرضي إلى "معبد آمون" حيث يصلي الكهنة للربة إيزيس لتحقيق حلم من ألقى بعملته، لذا لا بد للمتبرع أن يوشوش عملته المعدنية بما

يريد من دعاء أو رغبة يود أن تتحقق. ولكن ما يفسد على هذا المتبرع دعاءه هؤلاء الشباب الذي يغوصون للحصول على العملة قبل أن تذهب مع نظيراتها إلى "معبد آمون".

قال لي الماء العاشق، وقد أتاني ليلة أتاني من جهة البئر:

- الليلة سيكون هناك عرض لحوريات البحر فوق بئر مسعود.

- ما المناسبة؟

- عيد بير مسعود.

- نسهر ونرى.

في العاشرة مساء سمعتُ ثلاث دقات، كأنني في مسرح يستعد لتقديم إحدى مسرحياته، فتحت شباكي المطل على الكورنيش، وقف الماء العاشق بجانبي نشاهد أضواء بألوان الطيف السبعة لم نَرَها من قبل، آتية من جهة البحر وتحديدًا فوق بئر مسعود، وقف الخلق على الكورنيش ينظرون ويحملقون، وتعطلت حركة المرور ولغة الكلام.

أجساد نورانية تصعد نحو السماء، وأجساد مائية منيرة تهبط من السماء، وعزف موسيقي يخلب الألباب، هل هي موسيقى حوريات الجنة؟ وفتيات من النور والبلور يرقصن في الهواء، كأنهن راقصات باليه في عرض ملكي خاص، يرتفعن، ويدُرن، يقتربن من شباكي، يطرن، الماء العاشق يحييهن بطريقته البلورية، يضحكن وينثرن عطورًا لها رائحة عطر هدى إسماعيل أو عطر كليوباترا.

إنه العطر نفسه، أكاد أُجنُّ، هل كن يرقصن لكليوباترا في حفلاتها الصاخبة على سفنها الذهبية والفضية، ويتعطرن بعطرها؟

أسئلة سوف أطرحها على الماء العاشق بعد انتهاء الحفل والاستعراض أمام بئر مسعود.

من بين هذا السحر والرقص والأداء النوراني، بزغت امرأة لها كل معايير ومواصفات الأنوثة، لها الكمال والليونة، لها البحار والرشاقة والنعومة، تدور سبع دورات حول البئر وخلفها بناتها الراقصات. رغم كل الزحام وتوقف المواصلات وعدم انسياب الحركة على الشاطئ، واستدعاء فوري لقوات الأمن لتأمين "بير مسعود" وبقية المكان والبشر، وصلت لي تلك المرأة. وصلت في الزحام:

- كيف وصلتِ أنتِ في الزحام؟

تضحك وتقول:

- هذه الليلة جئتُ من أجلك أنت يا عمر! ثم ناولتني ورقة بلورية مطوية وقالت:

- لا تفتحها الآن. بل شاهد رقصتي قبل أن أغادر المكان!

كانت تغني على رقصتها البديعة:

أجيءُ الآن

بلا ضجةْ

بلا استئذان

أجيءُ الآن

إلى الإنسان

فمن منكم يغني لي

أنا السبَّاح فوق البحر

أنا المنقوش والمزروع فوق الصخر

أنا الإيمانُ والأحلامُ ..

سرُّ الماءِ .. سرُّ النهر

فمن منكم يشاهدني

ومن منكم يصادقني

ومن منكم يرافقني

لعمق النورِ والأضواءِ .. قلبِ السحر

أجيءُ الآن

إلى الشطآن

إلى الإنسان

بلا ضجة

بلا استئذان

أجيء الآن

لم تستطع القنوات الفضائية نقل الحدث، لم تكن على علم بما سيجري، ولم يستطع مندوبو الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية الوصول إلى المكان. كل الصور التي كان أصحاب الهواتف الذكية والكاميرات الرقمية، يلتقطونها، تُحرق في الحال.

لم يستمر الفرح والغناء كثيرًا، رقصتْ رقصتها الأخيرة قبل أن تختفي مع بناتها في قعر "بير مسعود" وينفض المولد، ويعود كل إلى حال سبيله متعجبًا مما جرى.

فتحت الورقة البلورية، وإذا بها تشير إلى ضرورة ذهابي إلى صخرة ميامي القريبة من "بير مسعود".

سألني الماء العاشق:

- هل تجيد السباحة؟

- نعم ولكن ليس لفترات طويلة.

- عليك أن تتدرب على الغوص تحت الماء طويلًا.

- لماذا؟

- عند صخرة ميامي ستجد إشارة أخرى.

سيدي بشر

وقف الشيخ المبروك بشر الجوهري على شاطئ البحر، وحده أمام هذا الفضاء الوسيع، ليس هناك سوى الرمل الأشقر والبحر الأبيض والأفق الممتد إلى ما لا نهاية، حيث يلتحم البحر بالسماء الزرقاء، وبعض الصخور الصفراء والبُنيّة الفَرِحَة تبدو على يمينه ما بين الرمل والبحر.

توضأ الشيخ بشر من مياه البحر، وصلّى ركعتي شكر لله أن وصل سالمًا إلى هذه البقعة من شرق الإسكندرية. قرر أن يقضي بقية حياته في تلك المنطقة التي سُميت باسمه فيما بعد، وأضاف إليه الناس لقب "سيدي" ليؤكدوا احترامهم وتبجيلهم وتتلمذهم على أيدي هذا الشيخ، فكان "سيدي بشر".

الشيخ بشر بن الحسين بن محمد بن عبيد الله بن الحسين بن بشر الجوهري، لسبب ما قرر اعتزال الناس في هذه البقعة النائية البعيدة عن المدينة. إنه من سلالة آل بشر الذين وفدوا إلى الإسكندرية في أواخر القرن الخامس الهجري أو أوائل القرن السادس الهجري (الثالث عشر الميلادي) مع علماء ودعاة جاؤوا من المغرب والأندلس، هل هي قصة حب فاشلة؟ هل خلاف مع علماء المدينة، ومنهم أبو طاهر حافظ السلفي المولود في أصفهان ٤٧٨ هجرية، وانتقل للعيش في الإسكندرية عام ٥١١ قبل وفاة سيدي بشر بسبعة عشر عاما؟ وقد التقى الرجلان وكتب الحافظ السلفي عن سيدي بشر وغيره في كتابه "معجم السفر" روى فيه ذكرياته ومشاهداته بالإسكندرية.

لكن يبدو أن الحافظ السلفي لم يجز أو لم يعترف بعلم بشر الجوهري، فالحافظ قادم من الشرق من أصفهان، وبشر قادم من الغرب من المغرب وبلاد الأندلس، ولم تكن الأمصار الإسلامية وقتها تعترف لأي عالم بعلمه إلا إذا أجازه عالم الإسكندرية الإمام أبو طاهر حافظ السلفي الذي كان يطلق عليه "مسند الدنيا" لأنه كان آخر من يوثق به في علم إسناد الحديث.

ربما لهذا السبب اتخذ بشر الجوهري قرار الزهد والتصوف والانقطاع للعبادة ووعظ الناس وهدايتهم على طريقته والانخراط في طابور السالكين.

في أثناء جولة صباحية لبشر الجوهري على شاطئ البحر، جلس فوق فوهة البئر الموجودة منذ آلاف السنين، ولم ينتبه إليه أحد سوى الملكة كليوباترا، فوضعت بعض أسرارها به.

سمع بشر نداء من أسفل البئر، نظر إلى الماء في قعر البئر فوجد إنسيًّا يطلب منه أن يرفعه إلى أعلى، فقد نال البحر منه ما ناله من تعب ووهن، فتَّش بشر في حوائجه عن حبل يدليه، فوجد حبلًا قصيرًا يفي بالغرض، رمي الحبل إلى هذا الإنسي، فتسلق عليه وصعد إلى الأعلى شاكرًا بشر الجوهري.

عرف بشر الجوهري أن هذا الإنسي اسمه مسعود، وكان يعيش سعيدًا مع أم الماء أو جنية البحر، إلى أن حدث خلاف بينهما بعد أن أحبَّ مسعود إحدى الجنيات من بناتها، عندها قررت الجنية الكبرى طرد مسعود من عالم الماء والبحار والشعاب والمرجان، وعودته إلى عالم الأرض والإنس، وأطلقته وسط البحر يعاني برودة الماء وتقلبات الجو، وأعاصير البحار، وشراهة الحيتان الكبرى، ومغامرات أسماك القرش، وأسنان الأمواج، إلى أن وصل ذات صباح مشمس إلى شاطئ البحر ودخل في نفق البئر، في الوقت نفسه الذي وصل فيه بشر الجوهري إلى هذا البئر.

بعد أن أخرج بشر القليل من الطعام، من القليل الذي كان معه في خُرجه، فأكلا معًا أقل من القليل، حكى مسعود إلى بشر حكايته مع الجنية، كان بشر يرى أن في هذا الكون أسرارًا لا نحيط بها، ومخلوقات

تعيش حولنا وتسبّح للرحمن لا ندرك كُنهها، فقرر أن يحتضن مسعودًا، ويعود به إلى عالم التقوى والإيمان البشريين، أن ينسيه عالم الماء والجنيات، أطلق على البئر "بئر مسعود" وكانا يذهبان كل صباح إليه يتعبدان بجانبه.

رحل بشر الجوهري إلى الحياة الأخرى، وقرر مسعود إن يبني له ضريحًا في المنطقة التي سميت باسمه، فكان "مسجد سيدي بشر" المطل على البحر وزرع أمامه حديقة كبيرة، لم يزل يرتادها الناس حتى يومنا هذا.

وكما ظهر مسعود فجأة اختفى فجأة بعد وفاة "سيدي بشر"، هل تصالح مع جنية البحر (أم الماء)، وأبدى ندمه وأسفه على فعلته، هل غفرت له وأعادته إلى مملكتها المائية. هل من حقي أن أسألها إذا التقينا في مرة قادمة؟

صخرة ميامي

حكيتُ لهدى إسماعيل عما حدث في تلك الليلة وزيارة جنية البحر وبناتها لبئر مسعود، حكيت لها عن غنائها، رقصاتها، صعودها، هبوطها، وما سلمته لي، واستعدادي للذهاب إلى صخرة ميامي.

سألتني:

- هل هناك علاقة بين زجاجة العطر والصخرة؟ هل هناك أسرار جديدة وعطور جديدة؟

- سنعرف عندما نذهب إلى هناك.

- هل سآتي معك؟

- أفضّل أن نذهب معًا، وعلينا أن نتدرب على الغوص طويلًا تحت الماء.

حددنا موعدًا للذهاب إلى صخرة ميامي بعد بزوغ الفجر، سبحنا حتى هناك، كان الماء باردًا، ثم تدريجيًّا بدأنا نتأقلم معه. جلسنا على كتف الصخرة نرتاح قليلًا، وفي الوقت نفسه، ننظر إلى تجاويفها، نفتش بأصابعنا في ثقوبها الخضراء، علنا نجد أي علامة أو دليل يقودنا إلى شيء مجهول، شيء لا نعرف كنهه.

بعد قليل حلقت فوقنا طيور النورس، تنخفض وترتفع في مجموعات ودوائر بيضاء، ظل طائر منها يحوم حولنا، يذهب إلى مكان بعينه ويعود شاخصًا إلينا.

قلت لهدى:

– يبدو أن هناك شيئًا ما في المكان الذي يذهب إليه الطائر، سأذهب لأرى.

رأيتُ نبعًا في قلب الصخرة يقطر ماء عذبا يصب في مياه البحر المالح، تيقنتُ من ذلك عندما ارتشفتُ منه، فوجدته ماء زُلالًا.

عند البرزخ، أو الحد الفاصل بين الماء الزلال والملح الأُجاج، سمعتُ صوتًا هامسًا يشبه صوت أم الماء عندما كانت تغني. دعاني الصوت لأن أهبط بمفردي إلى تحت الصخرة. أشرتُ إلى هدى أن تمكث في مكانها، وهبطتُ إلى الأسفل. لم أتوقع أن أرى كل ما رأيته أسفل صخرة ميامي. قصرًا مسحورًا مشيدًا من الأحجار الكريمة، والذهب والفضة، لم تكن أوصاف القصور تحت الماء التي قرأت عنها

في "ألف ليلة وليلة" أبدًا من الخيال، إنها واقع أمامي أراه الآن بعين اليقين.

أخذتُ أسيرُ تحت الماء طويلًا إلى أن وجدتُ أم الماء في أزهي ثوب وأنضر وجه وأجمل قوام، بجوارها من الناحية اليمنى يجلس أنسيٌّ شاب كأنه ملك فرعوني مُتوَّج، وعلى يسارها إنسية شابة تشبه الملكة كليوباترا كثيرًا.

رحبوا بي بابتسامة عريضة، تحدثت الجنية قائلة:

- أهلًا بك في عالمنا المائي.

قدَّمت لي الإنسية والإنسي:

- الملكة كليوباترا التي حكمت عالمكم، وهي في عمر الثامنة عشرة مدة عشرين عاما، كانت مخلصة لحبيبيها أنطونيوس، وكانت تودُّ أن تحكم العالم من الإسكندرية، لم تمت كما يعتقد البعض، الثعبان الذي قرصها، لم يكن سامًّا، منحها ماءه الذي سرى في جسدها الملكي سِرَّ الخلود، فضَّلت أن تعيش في عالمنا المائي الخالد وتتخلى عن أحلامها، سحرها، مُلكها، سطوتها، عطورها، عبيدها، أساطيلها البحرية، خاصة بعد معركة أكتيوم الشهيرة ورفضها الخضوع إلى إرادة المنتصر. منحناها سر الماء العاشق، كي تستطيع التأقلم مع عالمنا.

أما الإنسي الذي كان على يمينها، فعرفت أنه مسعود صاحب البئر، فقد غُفرت له خطيئته التي خرج بسببها من مملكة الماء، وعاد إلى القصر المسحور أسفل صخرة ميامي بعد وفاة "سيدي بشر".

أخبرتني جنية الماء أن الملكة كليوباترا عرفت أنني عثرتُ على إحدى زجاجات عطرها في حمامها بمرسى مطروح. أكدتُ ذلك بإيماءة من رأسي. استأذنت الملكة من أم الماء لكي تتحدث إليَّ.

قالت:

– كنت في المغطس في مرسى مطروح وأنا عارية تمامًا من الملابس والبشر.. مرتدية دفء الشمس ونسيم الهواء ووحدتي.. ورغبتي في الهدوء إلا من صوت الماء المحبب لنفسي كقطعة موسيقية خالدة في أسماع الزمان. لم يكن أنطونيو معي، صليت للربة إيزيس أن تمنحني عطرًا لا يفنى، ذا رائحة نفاذة لا تبلى من أخلاط المسك والعنبر والزعفران والأعشاب النامية على سفح جبل في قبرص.

استطعتُ صناعة هذا العطر بنفسي، بعد قراءات وثقافات وتجارب عدة، رششته في كل مكان في جسدي. وضعته في أكثر من قنينة مع بعض الاختلافات البسيطة جدًّا بين قنينة وأخرى، سميته باسمي "عطر كليوباترا"، عندما جاءني أنطونيو في حمامي متجردا من جنوده وسيوفه وخوذته، كان مَلاكًا بجماله ووسامته وقوته، شمَّ عطري ركع لي، لبسني ولبسته، ثم منحني حكم بلاد جديدة غير مصر وسوريا وقبرص. كانت ممالكي تزداد ورقعة حكمي تتسع مع كل رشة عطر، كنتُ أكتبُ بالمسك على صدر أنطونيو، ويكتب هو بالعنبر والقبلات على خدي وشفتي، كان يودعني قلبه بكل أشواقه وحبه، وأودعه خدي بكل صفائه وحمرته وحرارته. تركت قناني كثيرة في كل بلد أزورها

والتقي فيها بحبيب قلبي وروحي، سُرقت بعضها، وبقيت بعضها في أماكنها، ومن ضمن ما بقي تلك القنينة التي وجدتَها في حمَّامي. الآن أستطيع أن أقول لك عن مكان القنينة الأخرى التي لن تجدها بسهولة في زمانكم هذا الذي تصلنا أخباره عبر الماء العاشق الذي يسكن في شقتك الآن.

قبل أن أسألها عن مكان القنينة الأخرى قالت:

- إنها بجوار بئر زمزم.

سكتت كليوباترا عن الكلام المباح. وتحدثت أم الماء قائلة:

- لا تخف سوف تعثر على القنينة الأخرى.

نظر إليَّ مسعود بإمعان، كأنه يتفحصني، يسبر أغوار الرجل الذي سوف يتعاون معه مستقبلًا من أجل الحصول على قنينة العطر. أحسست أن مسعودًا يشبهني كثيرًا.

سألتُ أم الماء عن أسباب عدم دعوة خطيبتي وحبيبتي هدى معي وتركها فوق صخرة ميامي تعاني الوحدة والبرودة دوني. ضحكت طويلًا، وضحكتْ معها كليوباترا، وقالت:

- إذا أحببت أن ندعوها الآن، دعوناها. ولكن أفضل ذلك في مرة قادمة بعد اجتيازك الأهوال القادمة.

- أهناك أهوال سنلاقيها؟

- أهوال عالمكم وشركاتكم ومصائبكم، ولكن ببركات الربة إيزيس، سوف تجتازها.

تحدثت كليوباترا ثانية، قالت بنعومة آسرة ودلال أنثوي سيّال:

- لا تغيروا اسم عطري. فقد علمتُ أن حبيبتك تريد أن تسميه "عطر الهُدى".

أخذني العجب، فأنا لا أعرف أن هدى تنوي تسمية العطر باسمها.

في ديليس

عدتُ إلى العمل، وجدت بهجت الدسوقي في انتظاري، فقد حـدَّد موعدًا مع وليم شكري لنلتقي ثلاثتنا، ثـم تلحـق بنـا هـدى في جلـسة أخرى. عرفت من وليم شكري أن الشركة الفرنسية للعطور قـد أنابتـه لينهي إجراءات العطر الجديـد، وتوقيـع العقـود مـع هـدى إسـماعيل، مقابل مليون يورو وإعلان تلفزيوني. أخبرتهم أن قنينة العطر التي معي لا بد من فتحها أولًا وتقدير الكمية التي بها ثم التفاوض حول الـسعر، وأن فتحها ليس بيدي ولا بيد هدى، ولكن بيد شيخ مغارة جعيتا، فهـو الوحيد الذي يملك سِرَّ فتحها.

تعجبا، ثم بدآ يتفهمان الموقف، ويتضح لهما سر العطر، طلب ولـيم شكري أن أطلعه على الزجاجـة ربـما يـستطيع فتحهـا دون اللجـوء إلى شيخ مغارة جعيتا.

- لن تستطيع ذلك.

- لماذا؟

- إنها تحتاج إلى خبير يطعن السدادة الفلينية سبع طعنات متتالية دون أن يسقط منها أي فتيت بداخل الزجاجة، ولا تنسكب أي نقطة خارجها.

أخذ وليم شكري يفكر في طريقة ما. ثم طلب مشاهدة الزجاجة، وأيّد طلبه بهجت الدسوقي.

اتقفنا على ميعاد، تكون فيه هدى إسماعيل معنا، وأخبرني أنه سيبلغ ليلى علوي بالميعاد ربما تستطيع المجيء من القاهرة فهي في أشد الشوق لرؤية هدى وعطرها.

التقى خماستنا في محل حلواني ديليس بشارع سعد زغلول. ليلى علوي هي التي حددت هذا المكان لأنها كانت تتردد على ديليس كلما جاءت الإسكندرية منذ صغرها. تجمهر الناس في محطة الرمل حولها باعتبارها نجمة سينمائية محبوبة، وقف الناس في ديليس يسلمون عليها، يلتقطون الصور التذكارية معها، قالت لها إحدى الفتيات:

- عطرك اليوم لا مثيل له.

ضحكت ليلى علوي وغمزت إلى هدى إسماعيل؛ وشكرت الفتاة. طلبت ليلى علوي من الجرسون أن يفتح صالة الطعام المكيفة لنجلس فيها، بعيدًا عن أعين الفضوليين وهواة التصوير مع النجوم.

بعد أن أثنت علوي على رائحة هدى، وأكدت كلام وليم شكري عن تلك الرائحة الفريدة، طلبت أن تعرف سر هذه الرائحة. حكت لها هدى بعض التفاصيل، واحتفظت لنفسها ولي بالبعض الآخر. اندهشت ليلى علوي مما سمعته، وقالت: ولا في أفلام السينما يحدث ما تقولين. وأضافت:

– الواقع فعلًا فيه من الخيال أكثر من الخيال نفسه.

قلتُ ضاحكًا:

– السلاحف تملك أحيانًا خيالًا أوسع كثيرا من خيال البشر.

قال وليم شكري:

– أمامنا مراحل أخرى أكثر صعوبة، وهي فتح الزجاجة التي مع عمر في مغارة جعيتا.

شهقت ليلى علوي عندما سمعت اسم مغارة جعيتا، وأكدت أنها تعرف شيخ المغارة. قفز إلى ذهني مشهد هدى وهي ممددة عارية تمامًا على السرير الحجري وشيخ المغارة يقوم بنثر الجسد وتدليكه بقطرات من عطر الزجاجة. تخيلت ليلى علوي مكانها. سألتها عن طبيعة العلاقة مع شيخ المغارة.

– كلما ذهبت إلى بيروت أمرّ عليه واشتري منه عطورا فوّاحة لا أجد مثيلها في باريس أو القاهرة أو الإسكندرية.

أضافت:

- كنت هناك الأسبوع الماضي، واشتريت منه بثمن غالٍ قنينة عطر رائحته تشبه تماما ما أشمه الآن في هدى.

تذكرت تلك القطرات التي أخذها شيخ المغارة لنفسه، وصبها في قنينة أحضرها معه، قبل أن يغلق زجاجتنا بسدادة فلين جديدة. لقد كانت هذه القطرات هي الأساس أو العطر المركز الذي سيخلط به عطورًا أخرى، ويبيعه بثمن غالٍ.

حكيت لهم عن هذا الموقف. وعرفت لماذا لم يتقاضَ الشيخ ثمنًا لفتح الزجاجة، فهو مستفيد بطريقة أخرى. ويريد أن يستفيد ثانية بعد أن قام بإغلاقها على النحو الذي كان.

عرفت ليلى علوي سر العطر وسر الزجاجة التي معنا، أدركتْ بحاسَّتها الجمالية والفنية أهمية ما معنا، طلبت أن تدخل شريكة مع الشركة الفرنسية للعطور عن طريق الوسيط وليم شكري.

طلب مني بهجت الدسوقي أن أوافق على عرضها، فقلت:

- الموضوع بين يدي وليم شكري، وأنا وهدى لا نتدخل بين الشركاء.

طلبت هدى طلبا واحدًا:

- أن يسمى العطر الجديد باسم "عطر الهُدى"!

على الفور تذكرت طلب كليوباترا بأن يسمى العطر باسمها "عطر كليوباترا". قبل أن أُعلِّق وأقترح "عطر كليوباترا" اعترضت ليلى علوي بذكاء وحنكة قائلة: - حبيبتي هدى مع كل التقدير والحب لك ولاسمك الرائع، نريد اسمًا عالميًّا، فلن نوزع العطر في مصر فحسب، أو في المنطقة العربية فقط، ولكن سنوزعه في كل أنحاء العالم، ولعلية القوم القادرين على شرائه، وعلى ما أظنُّ لن يكون ثمنه بسيطًا أو رخيصًا.

تجنبتُ النظر إلى هدى في تلك اللحظة، هي بالتأكيد تنظر لي كي أناصرها في إطلاق اسمها على العطر الجديد.

قلت:

- رأي فنانتنا الجميلة له وجاهته بالتأكيد، ولكن أنسينا أن الشركة الفرنسية سيكون لها رأي في اختيار الاسم!

ليلى علوي لا تحب أن يغضب منها أحد، ولا تودُّ أن تخلق توترا ما في جلساتها، داعبتْ هدى قائلة:

- أتعرفين أن وجهك الجميل يصلح للشاشة السينمائية. هل مثلتِ من قبل؟

أبدت هدى ارتياحًا وتهللت أسارير وجهها:

- لا لم أمثل من قبل.

نظرتْ إليَّ وقالت:

- ولكن عندي استعداد لذلك.

- إذن لا بد أن نجلس كثيرًا معًا، حتى أعثر لك على دور مناسب. والبداية ستكون من خلال الإعلان التلفزيوني عن العطر الجديد.

- لماذا لا تشتركين معي في هذا الإعلان؟

ضحكت ليلى علوي قائلة:

- ولم لا .. عندما أرى إسكريبت الإعلان أولًا، هل يصلح لاثنتين أم لواحدة فقط؟

قلت:

- حتى لو كان يصلح لواحدة فقط، يتم تغييره ما في مشكلة.

- يبدو أن لك يا عمر تجربة في الكتابة السينمائية والتلفزيونية.

- أحاول.

- أطلعني على محاولاتك، ربما أجد شيئًا جديدًا أقدمه للسينما مع هدى إسماعيل، نجمة العطر والسينما الجديدة.

قامت هدى من مقعدها وقبَّلتها وقالت:

- لِمَ لا نسمي العطر الجديد "ليلى علوي"؟

ضحكت ليلى علوي وضحكنا جميعًا، قالت:

- ما ينفعش!

أدركـتُ أن هـذه اللحظـة هـي اللحظـة المناسـبة لأنفـذ وصـية كليوباترا، فقلت:

– ولماذا لا نسميه "عطر كليوباترا" إذا لم يكن هناك فعلًا عطر بهذا الاسم؟

قال وليم شكري:

– من خلال معرفتي بأسماء العطور العالمية، لا يوجـد الآن عطـر باسم "عطر كليوباترا"، توجد سجائر "كليوباترا" فقط.

ضحكنا جميعًا، واتفقنا على أن نلتقي ثانية.

بئر زمزم

ما العلاقة بين جزيرة ميامي وبئر زمزم، أو بين بئر مسعود وبئر زمزم، من الذي أرسل قنينة عطرية من قنينات كليوباترا إلى تلك البقعة المقدسة؟

تذكرت نور الدمرداش في فيلم "عنترة بن شداد" (إنتاج ١٩٦١) وهو يردد في كل حين: العطر يا ولد! هل قامت كليوباترا بزيارة للأراضي المقدسة، وشاهدت بئر زمزم، وتركت هناك إحدى قنيناتها الفوّاحة، مثلما تركت إحداها في حمامها الشهير في مرسى مطروح؟ لقد عرف العرب العطور منذ وقت طويل، ويقال إنهم أول من استخدم تاج الزهرة لاستخراج ماء الزهور، ولم يستعملوا تاج الأزهار عطرًا فقط بل استعملوها دواءً أيضًا.

عرف العرب الياسمين والبنفسج وزهر الليمون والورد وغيرها من المصادر المهمة لاستخراج العطور، ولكن جوهر العطر يُستخرج

مـن مـصادر أخـرى غـير الأزهـار، كالخـشب ولا سـيما خـشب الأرز وخشب الصندل، ومن الأوراق مثل النعناع والغرنوق والخزامى، ومن جذور معينة مثل الزنجبيل والسوسن.

وتكمـن الطريقـة العربيـة لـصناعة العطـور في اسـتقطار تيجـان الأزهار مع الماء العاشق للزهور، وتكون عبر وضع رقائق مـن الزجـاج في إطارات خشبية حيث تُغلف بـدهن نقـي وتُغطـى بتيجـان الأزهـار وتُكدس الواحدة فوق الأخـرى. ويجـري تبـديل التيجـان بـين الحـين والآخر إلى أن يمتصَّ الدهن النقي الكمية المطلوبة من العطر.

ويُعدُّ الفيلسوف ابن سينا من أفـضل العلـماء المـسلمين في صـناعة العطور، فقد اكتشف طريقة استخراج العطـر مـن الـورود عـن طريـق "التقطير"، كما يعـد الفيلـسوف الكنـدي مـن أبـرز العلـماء العـرب في صناعة العطور وله كتاب بعنوان "كيمياء العطور" ذكر فيه قائمة طويلة لعطور مختلفة، وكان يستخدم المسك والعنبر جزءين أساسيين في أغلب العطور التي عرفها العرب والمسلمون بعد ذلك.

كان العرب والمسلمون الأوائـل يعرفـون قيمـة العطـور وأهميتهـا للإنسان، فللتعطير رجاله وصنّاعه ومستخدموه. العطور العربيـة جـزء من الثقافة العربية بـشكل عـام ومـن أشـهر منتجاتهـا: العـود، العنـبر، المسك، الياسمين، الريحان. وتختلف طريقة تـصنيعها، وبعـضها يحتـاج للتقطير مثل الورد الطائفي.

قرأتْ كليوباترا عن العطور العربية، وقررت القيام برحلة إلى شبه الجزيرة العربية عام ٤٠ قبل الميلاد، علّها تكتشف أنواعًا جديدة من العطور. وهناك شاهدت بئر زمزم في مكة، كان البئر يتدفق مرحبًا بزيارة الملكة المصرية، وكان الماء العاشق يعيش طفولته في تلك البئر المقدسة.

استمعت كليوباترا لقصة البئر العظيمة التي يبلغ عمقها ٣٠ مترًا، وأُعجبت أكثر عندما عرفت أن العيون المغذية للبئر تضخ ما بين ١١ إلى ١٨.٥ لتر ماء في الثانية.

قال الماء العاشق الذي لا يبلى ولا يفني ولا يتبخر ولا يتجمد، إنه كان مع جبريل. كانت هاجر المصرية تسعى وتهرول ما بين جبلي الصفا والمروة. كانت تحمل ابنها إسماعيل بعد أن تركه أبوه نبي الله وخليله إبراهيم معها في أرض قفراء لا زرع فيها ولا ماء. كادت تُجن، الطفل يبكي بكاء مريرًا، الأم ليس لديها شيء تقدمه إليه، حتى لبنها جفَّ في صدرها، حطَّ جبريل على الأرض ضربها بعقبه، انفجرت عيون الماء، لحظتها أدركتُ سر الماء الإلهي، وأدركتُ أن هناك شعوبًا وقبائل سوف تجيء لتتعارف في هذا المكان. أخذت هاجر تزمُّ الماء بيديها خشية أن يتسرب إلى رمال الصحراء الواسعة فتبلعه أو يتبخر سريعًا، لم تدرِ أن هناك بئرًا تصل عمقها الى ٣٠ مترًا تتدفق منها عيون الماء المقدسة.

أحست كليوباترا بالفخر عندما عرفت أن هاجر أم إسماعيل كانت مصرية مثلها. شربت كثيرًا من ماء زمزم، وفي كل شربة تعطش أكثر.

أخذت معها قارورة كبيرة من ماء زمزم. عـادت إلى الإسـكندرية بالمـاء وبالفخر العظيم. ووعدتْ أن تكرر الزيارة في كل عام.

في العام التالي، عادت كليوبـاترا بعـد أن صـنعت عطرهـا الفريـد وصبت فيه قطرات من ماء زمـزم، حملـت عـدة قنـاني معهـا، وضـعت إحداها بجوار البئر على عمق مـترين تحـت الرمـل. وفوجئـتْ بأعـداد الناس تتزايد حول البئر وحول الكعبة، مجتمعات عربية ويهودية جديدة بدأت تنتشر هناك.

كنتُ أعرفُ قَدْرَ كليوبـاترا وأقـدر جمالهـا وذكاءهـا، وقـوة بأسـها وثقافتها، فطلبـت منهـا أن أذهـب معهـا إلى الإسـكندرية حيـث تقـيم وتحكم، رحبت على الفور. انتقلتُ من الصحراء العربية ومن جوار بئـر زمزم إلى المياه السكندرية وقصر كليوباترا المطل على البحر المتوسط.

الرحلة البحرية الصعبة

لم تكن العودة إلى مغارة جعيتا بالأمر السهل، لعدة أسباب من أهمها: اعتراض والدة هدى على كثرة الخروج والسفر معًا، ونحن ما زلنا مخطوبين. الأمر الثاني كثرة التكاليف التي لم تُبقِ على شيء من مدخراتنا أنا وهدى، ولم تقم شركة العطور الفرنسية بدفع أي شيء حتى الآن. الأمر الثالث: الاقتراح بالسفر إلى المغارة عن طريق الممر البحري السري الواصل بين بئر مسعود وبيروت ومنها إلى مغارة جعيتا. وما قد نلاقيه من مصاعب ومفاجآت وأهوال في الطريق كما أشارت أم الماء.

استطعتُ أن أقنع هدى ووالدتها أن نعقد قراننا (نكتب كتابنا)، لتكون زوجة شرعية، ثم نؤجل ليلة الدخلة بعد العودة من بيروت، والاتفاق النهائي مع شركة العطور الفرنسية، والحصول على مليون

يورو (أي أكثر من اثني عشر مليون جنيه مصري). عندما سمعت أمُّها الرقم - وكانت أول مرة تعرف ذلك - شهقت، وقالت:

- على بركة الله يا ابني.

وتم عقد القران في منزلها وسط حضور قليل من الأهل والأقارب وزملاء العمل. أما عن تكاليف الرحلة، فقد اقترحت هدى عليَّ أن نلجأ إلى الاقتراض من وليم شكري، بضمان العطر.

- إذًا لن يبقى سوى المغامرة بالسفر عن طريق الممر السري، وكيف يكون ذلك؟ هل أطلب مقابلة جنية البحر مرة أخرى، أو مسعود؟

قفز الماء العاشق أمامي، وكأنه يقرأ أفكاري، ونصحني بعدم الذهاب لجنية البحر الآن، وأن أتوكل على الله عن طريق الممر السري.

جهزنا نفسينا للرحلة الصعبة. مرت عليّ هدى بعد الفجر، حملنا حقائبنا الجلدية الخفيفة المقاومة للماء (ووتر بروف)، وضعت قنينة العطر في جيب سري بالحقيبة الخاصة بي. توجهنا إلى بئر مسعود وسط برودة المياه في ذلك الوقت من اليوم.

قفزنا الى أسفل البئر، وجدت مسعود هناك في انتظارنا. هل أخبره الماء العاشق بتوقيت سفرنا؟

أعطى مسعود كُلًّا منا جهازًا معدنيًّا صغير الحجم للتنفس تحت الماء، في حجم زجاجة المياه الصحية الصغيرة، يخرج منه ما يشبه كمامة

صغيرة نضعها على الأنف، نتنفس هواء نقيًّا عن طريقه، كأن به خياشيم نتنفس عن طريقها.

قال:

- هذا الجهاز يكفي الرحلة كلها.

أشار إليَّ بنقطة بداية النفق البحري على بعد أمتار قليلة من البئر. حاول أن يخفف من توتري ومن توتر هدى قائلًا:

- لا تخفا .. أنا وراءكما.

دخلنا النفق. هدى متشبثة بذراعي. سرنا نحو نصف الساعة. ظهرت معالم البحر الأبيض بوضوح، معالم غير تلك التي نراها من أعلى البحر. إننا الآن في عمق البحر. حولنا كائنات بحرية لا تشعر بنا، وقصور تحت الماء، مدينة كاملة وشوارع وأزقة، ولكن لا يوجد ناس، كأنها مدينة غارقة تحت الماء. لم تكن مدينة مدمَّرة من أثر حرب أو زلازل أو تسونامي، ولكنها مدينة غارقة بكاملها، مدينة غمرتها الماء في غفلة من أهلها وساكنيها، فزحفت برفق تحت الماء، بعد أن هرب سكانها. كان الماء بها رحيمًا فحافظ عليها.

هل ندخل تلك البيوت والقصور لنرى ما تحويه، وإلى أي عصر تنتمي؟

نظرت ورائي فوجدت مسعودًا يتبعنا، يشير إلينا أن نستمر في السير. يبدو أنه لا يحق لنا دخول تلك القصور والبيوت، فهي تتبع الآن مملكة البحار التي تحكمها جنية البحر.

هل سنجد أجواء حكايات ألف ليلة وليلة هنا؟ هل سأكون أنا السندباد البحري الجديد؟ أو سندباد القرن الحادي والعشرين؟ هل سيستمر البحر على هدوئه وروعته وصفائه، أم سينقلب بنا ويزمجر ونحن في الأسفل أو في القاع نسير على صخور ووسط شعاب مرجانية وتلال خضراء؟

ولكننا لا نركب قاربًا أو مركبًا أو سفينة لتنقلب بنا، وتغوص بنا في الأعماق مثلما حدث للسفينة "تيتانك" وعبّارة "السلام". إننا نسير في القاع ونتنفس بسهولة ويسر.

ما أروعك أيها الماء العاشق! تذكرته الآن .. فتذكرني .. وأرسل لي رسالة اطمئنان، شعرت بها وأنا أخطو في الماء الآن.

أحسست أن هدى أصبحت أكثر اطمئنانا فبدأت تتخلى عن التشبث بذراعي، وتتأمل ما حولها من نباتات ومخلوقات ومبان حجرية غارقة.

فجأة ظهر وجه امرأة جميلة، يحيط به شعر طويل شديد النعومة وترتدي طحالب شقراء مضيئة. هل هي إحدى جنيات البحر؟

قالت:

- ما الذي أتى بكما إلى هنا أيها الإنسي وأيتها الإنسية؟

- نحن في طريقنا إلى مدينة اسمها بيروت.

- أعرفها، فقد ولدت هناك. ماذا تريدان من ست المدائن، بيروت؟

هل أقول لها الحقيقة، وأننا ذاهبان إلى شيخ مغارة جعيتا، ليفتح لنا زجاجة كليوباترا العطرية. أم اخترع أي حكاية والسلام؟

تشبثت بي هدى خوفا ودهشة، وقالت:

- إنني لا ألمح أي نية شر من ناحيتها.

رأي هدى دفعني لأن أقول لها الحقيقة.

ردت قائلة:

- أنت تقول الحقيقة، ولم تكذب عليَّ. لذا سأدعوكما إلى تناول الطعام معي في قصري هذا.

وأشارت إلى مكان قريب جدا. نظرت ورائي لأستشير مسعودًا، فلم أجده. تحيرت هل أقبل الدعوة أم أعتذر خوفًا من حدوث تطورات لا يُحمد عقباها. شجعتني هدى على قبول الدعوة، فقبلتها في حذر. سارت أمامنا. دخلنا القصر، وجدنا أسماكًا ودلافين وسلاحف وحيوانات بحرية لطيفة وكلاب البحر تحرس المكان. مررنا في هدوء وسلام. إلى أن وصلنا إلى قاعة كبيرة مزينة باللؤلؤ والمرجان، والزمرد والياقوت والكهرمان، وعلى مائدة من خشب الزان، كان الطعام أشكالا وألوان، وكانت رائحة خمر الحيتان، تُعبِّق المكان، والموسيقى تصدح في سماء القيعان، والشموع تُضيء الممرات والأركان.

قالت:

- أنا أعـرف سر عبـورك في مملكتـي المائيـة في هـذا التوقيـت يـا إنسان، ولو كنت كذبت عليَّ، لكان لي معك شأن آخر، وأي شأن.

قلت لها:

- أنا لم أكذب في حياتي قط.

- وزوجتك الجميلة؟

قالت هدى:

- أنا لم أكذب أيضًا قط.

- رائحتك يا هدى دليل على صدقك.

قامت من مجلسها. غابت قلـيلًا. عـادت ومعهـا جنيهـات ذهبيـة. أعطتني بعضها، وأعطت هدى بعضًا آخر. وعنـدما حاولـت الاعتـذار عن قبولها قالت:

- ستحتاجها في بقية رحلتك، ليس كل من ستقابلهم طيبين مثلي. تأكد أنك ستقابل أشرارًا وتجار حروب من إنسٍ وجانٍّ.

- حروب تحت الماء؟

- تحت الماء وفوق الماء وبين الماء. أطماع الكائنات البرية والبحريـة لا تنتهي يا عمر. أدعو لك بالـسلامة. ولكـن قبـل أن تنـصرفا، دعنـي

أعرفكما إلى فرقتي الموسيقية التي تبهر سلاطين الماء، ولتستمعا إلى إحدى السمفونيات الموسيقية الرائعة.

وجدنا أوركسترا من السلاحف كانت تنفخ في أبواق من الأصداف البحرية ذات أشكال عديدة. وكانت سلاحف أخرى تدق بأرجلها على دروع فارغة، في حين كانت سلاحف غيرها تنقر على طحالب دقيقة تمتدُّ بين أسنان سمكة قرش ظلت ساكنة، فاتحة شدقها على اتساعه. وكان هناك عدد كبير جدًّا من العازفين المهرة الذين كان يحتاج إليهم بشدة الأخطبوط قائد الأوركسترا بأذرعه الثمانية لكي يقود عالمه الموسيقي مع تألق للوتريات والهوائيات وآلات النفخ.

تبدأ الحَركة الأولى بجُملة هادِئة حَزينة قاتمة نوعًا ما تعزفها الوَتريات، ثم فجأة يتفجر اللحن يُرافقه قرع على الدروع الفارغة تمهيدًا لدخول لحن الحركة الرئيسي، والذي تؤديه الهوائيات بمرافقة موسيقى مرتعشة من الوتريات، ومن ثم تشارك الأوركسترا بأكمَلها في عزفه، وهو لحن يمتاز بالسُّرعة والاندفاع.

ثم فجأة يظهر لحن بحري الطابع يعزفه ما يشبه الفلوت بمصاحبة الوتريات يستمر سريعًا مندفعًا، ثم يهدأ فجأة كما بدأ، حيث يعود اللحن الرئيسي ويبدأ بالصعود وصولًا الى نهاية الحركة، ليخبرنا بوصول ملكة البحار وأم الماء. لحركة الثانية؛ تبدأ بلحن هادئ فيه الكثير مِن الشَّجَن ويُعبر عَن مَشاعر الشوق والحَنين للعرش المائي، ثم العودة لتكرار جملة الحركة الاولى الرئيسية. أما الحَركة الثالثة فتبدأ

بتنويعات نغمية شبيهة بالسيمفونية التاسعة لبتهوفن. ثم تبدأ الوتريات بعزف لحن قوي بدخول أقوى للهوائيات والإيقاع، ثم يختفي اللحن ليحل محله لحن هادئ جميل، يتبعه مقطع من ثلاث نغمات متنوعة، يتبعه مقاطع قصيرة من الحركات الثلاث الأولى فيما يشبه الشريط السينمائي القصير.

وتنتهي الحركة والسيمفونية بلحن حماسي انتصاري، يليق بقصتها وبنائها الموسيقي الدرامي، ما يرمز إلى انتصار الخير على الشر، وانتصار الماء على التراب الجسدي.

خرجنا من قصرها منبهرين بالعزف الموسيقي المعصوم من الخطأ، لنجد مسعودًا في انتظارنا. لم يتكلم وإنما أشار إلينا بمواصلة السير بعد هذه الضيافة والاستراحة والوليمة البحرية اللطيفة، والنفحات الذهبية الوفيرة، والموسيقى المائية الرائعة.

العطر .. العطر .. السحر .. السحر

هل نحن في ليل أم نهار؟

لم ندرِ، الأسماك المنيرة والزعانف المضيئة، والأجساد المائية المثيرة في أسفل قاع البحر الأبيض المتوسط لا تجعلك تفكر في الليل والنهار، في الظلمة والأنوار، في الفجر والأسحار.

مَرَّ كائن بحري بجوارنا، وكان يتعجب أن يجد بشرًا في تلك البقعة من البحر، كيف جاؤوا، كيف يعيشون، كيف يسيرون ولا يسبحون وسط الماء، لهم أيادٌ وأرجل وأنوف، وليس زعانف وخياشيم وقشور.

سألتني هدى:

- كم من الوقت باقٍ على وصولنا إلى بيروت؟

- لا أعلم .. يبدو أن الوقت هنا لا يمر مثل الوقت على الأرض، أو في الجو عندما سافرنا بالطائرة.

هل أسأل مسعودًا؟ نظرت ورائي لأسأله، لم أجده. غريب أمر هذا الإنسي البحري، يظهر ويختفي دون أن يُخبر ودون أن نَشعر.

بدأنا نسمع صيحات وزمجرات وأصوات تأتي من بعيد لا نعرف مصدرها، ولكن بدأنا نسمع بوضوح كلمات مثل: العطر .. العطر .. السحر .. السحر .. ثم وجدنا فتاة من فتيات البحر مربوطة في شجرة. اقتربنا منها بهدف فَكِّها وإنقاذها. وجدنا جرحًا كبيرًا مفتوحًا فوق رقبتها. يبدو أنها مطعونة بآلة حادة وميتة. عند فحص الجرح، اكتشفنا أن ما كان يسيل منها لم يكن دمًا بل كان ياقوتًا أحمر تصدر منه رائحة رائعة، غير رائحة هدى. جمعنا ما استطعنا حمله من الحجر الكريم، وضعناه في حقيبتينا وسرنا. سمعنا الياقوت يتكلم في حقيبتينا. يحذرنا من شيء قادم. نظرتُ ورائي فوجدت مسعودًا يتبعنا. وجود مسعود يشعرني بالأمان.

بعد مئات الأمتار من سيرنا عادت الصيحات والزمجرات والأصوات مرة أخرى: العطر .. العطر .. السحر .. السحر. وصوت ذكوري يقول:

– "إذا لم تقبلي الزواج مني، سأقتلك... سأجعلك تموتين مثل أختك". وفرقع سوط، منتزعا عويل الفتاة.

تقدمنا بحذر. كان المشهد أكثر وضوحًا. جريت لأنتزع السوط من يد هذا الكائن المائي الذي يشبه عجل البحر ويرتدي الطحالب، ويمتلك أسنانًا صفراء دميمة، تشبه أسنان مصاصي الدماء. فوجئ بي.

عيناه تحولتا إلى قطعتين من الجمر، بكّتا دماءً، لكنه لانَ سريعًا عندما شاهد هدى بجانبي. ترك الفتاة التي كان يضربها بالسوط، وأخذ يحدق إلى هدى ويشم رائحتها. خافت هدى، توارت خلفي. مد يده يلمسها. تعرضتُ له. نسي فتاته الأولى. أخذ يلف ويدور ويتشمم صائحا: العطر .. العطر .. السحر .. السحر. دون أن يعرف من أنا ومن هي هدى بالنسبة لي: أخت، زوجة، عشيقة، صديقة، زميلة .. قال لي:

– "أنا جنيُّ البحار. وأنت هنا في حرم قصري. أريد أن تبقى هنا الوقت الذي تريد وتقول لي ما الذي يمنحك أعظم الفرح إذا زوجتني تلك الفتاة التي معك. لقد سكرت بعطرها الذي انتظرته مئات السنين. لا تكن متسرعا في الإجابة. أتركُ لك وقتًا للتفكير. يمكنك أن تطلب مني الثروة، أو القوة، أو مملكة، أو جيشًا، أو الحياة الأبدية .. فقط اترك لي تلك الفتاة بعطرها وجسدها وروحها".

كان يقول لي هذا الكلام ولم يرفع عينيه عن هدى، إنه مسحور بها: العطر .. العطر .. السحر .. السحر.

قلت له:

– مولاي جني البحار، لا أريد الثروة، ولا القوة، ولا الجيش، ولا المملكة. ولا الحياة الأبدية التي هي في يد الخالق عز وجل. الشيء الوحيد الذي أريده الآن أن تتركنا نمضي إلى حال سبيلنا أنا وزوجتي التي أحبُّها، ولا أستطيع العيش دونها!

– ما دام الأمر هكذا فأنا أدعوك لمأدبة غذاء معنا بالقصر، إكرامًا لك ولزوجتك السعيدة، وإكراما لرائحتها الفريدة.

وأخذ يصيح بل يغني هو ومن معه: العطر .. العطر .. السحر .. السحر. وكأنها تعويذة يرددها دائمًا. لم أجد مفرًّا من قبول تلك العزومة. لكن خشيت أن يكون هذا مقلبًا من مقالب الجني. تذكرت في هذه اللحظة مذبحة القلعة، حينما دعا والي مصر الجديد محمد علي باشا، المماليك إلى مأدبة غداء، ثم شرع في تقتيلهم، فقتل من قتل وهرب من هرب. ترى سنُقتل هنا أم سنهرب؟

كانت هدى ترتجف من تصرفات جني البحار وكلماته، ولكي أطمئنها قلت لها: – "أفضِّل أن أموت عن أن أرى قطرة واحدة تسيل من دمك. كوني مطمئنة".

قالت:

– وأنا أفضل أن أموت عن أن أراك تقاتل هذا الوحش الفاتك.

نظرتُ ورائي، لم أجد مسعودًا. فلم أطمئن.

***

لم تنسَ جنية البحر أنني خلصتها من القتل عندما وقع نظر الجني على هدى، فنسيها، وهربت هي إلى داخل القصر. شاهدتنا ندخل من بهو القصر يتقدمنا جني البحار، فاختبأت وراء أحد الأعمدة المرمرية. كانت ترسل رسائل تحذير بعينيها الزرقاوين. أحسستُ أن جني البحار

يضمر لنا شيئًا. امتدت طاولات الأسماك والمأكولات والأعشاب البحرية وثعابين البحر وحساء فواكه البحر، وضعت كؤوس الخمر، دماء الترسة، أطباق القواقع، أم الخلول والكابوريا، والطحالب المفرومة كالسبانخ. هل هناك مأكولات سامة ضمن هذا القائمة؟ كيف نعرفها؟ أين أنت يا مسعود؟ هل هناك أصناف بها مواد منومة أو مخدرة؟

عيناي تجوبان المكان، وتنظران إلى العمود المختبئة وراءه جنية البحر، ربما تستطيع بنظراتها أن تقول شيئا ما، ينقذني من تيه المائدة.

تجرّع جني البحار عدة كئوس من دماء الترسة، وقدم لي كأسًا من خمر الروبيان. ولم يقدم شيئًا لهدى. مضطرًّا تجرعت الكأس. أرسلت عينيَّ لما وراء العمود المرمري. كانت تتأسف أنني شربتُ من الكأس.

في غفلةٍ منه قذفت حبة من فاكهة تشبه العنب، وأشارت إليَّ أن أبتلعها. وقعت الحبة في يدي بطريقة لا أدري كيف تمت. فابتعلت الحبة على الفور دون أن يلاحظ الجني ذلك. كان يتطلع إلى هدى ويتشمم رائحتها.

لم يسر السمُّ في بدني كما توقَّع جني البحار. ظللنا نأكل أنا وهدى من أسماك المائدة وأطباقها إلى أن شبعنا تمامًا. فشكرته وتهيأت للانصراف. أراد وهو يودعني أن يستبقي هدى لديه. رفضتُ ذلك. قال لي:

– أريدها أن تبقى معي ولن أقربها، لن أنام معها، فقط أريد رائحتها تفوح في أركان القصر. خذها في رحلة عودتك.

رفضتُ ورفضتْ هدى. وعدته أن أترك عنده بعض العطر في رحلة العودة إذا تركنا نذهب سالمين.

قال:

– إن هذا العطر يذكرني بالملكة كليوباترا ورحلاتها البحرية. كنتُ أصعدُ إليها وأُقبِّل يديها وأظل على سفينتها الكبيرة أمرح وألهو وأشرب أعتق الخمور التي لا أجد مثيلها في عالمنا المائي حتى الآن.

أحسستُ أن الجانب الجميل في شخصيته بدأ يظهر على السطح. فأخبرته أن اسم العطر فعلا "عطر كليوباترا" فسرح بخياله طويلًا، وبدأت أخطو إلى الخارج تتقدمني هدى إلى أن خرجنا من حرم قصره، لأجد مسعودًا أمامنا.

سفينة إسرائيلية

قطعنا شوطًا طويلًا تحت الماء، كنُت أخشى على جهاز التنفس الصغير الذي نحمله، أن يصيبه العطب أو تنتهي صلاحيته، إنه يعمل بكفاءة حتى الآن. لم نشعر معه بأي متاعب في التنفس والتحرك والصعود والهبوط والسير في أعماق البحر.

أخيرًا تكلم مسعود وقال:

- أمامنا وقت قصير حتى نصل إلى بيروت.

لم يكد مسعود يتم كلماته حتى رأينا شبكة صيد عملاقة تصطادنا وتشدُّ ثلاثتنا إلى الأعلى، كأننا سمك تم اصطياده. عندما صعدنا إلى سطح الماء شاهدنا سفينة ضخمة، كانت عليها نجمة سداسية. قلتُ لهدى ومسعود:

- يبدو أننا دخلنا عمق المياه الإقليمية لإسرائيل، فتم اصطيادنا.

على ظهر السفينة خضعنا لعدة استجوابات:

- ما الذي أتى بكم إلى هنا؟ كيف أتيتم؟

- نحن كنا نسير في عمق البحر، فوجدنا أنفسنا هنا.

- هههههه .. كنتم تتنزهون بالسير في عمق البحر؟

- أين جوازات سفركم؟

فتحتُ حقيبتي الجلدية، لم تتسرب إليها المياه، أخرجت جواز سفري، وكذلك أخرجتْ هدى جواز سفرها. لم أجد مسعود، فقد تبخر من أمامنا.

- سألني ضابط السفينة:

- أين الشخص الذي كان معكم الآن؟

- لا أدري .. ليتك تخبرني أين ذهب؟

- واضح أننا أمام شبكة إرهابية كبيرة تتزعمونها أنتم الثلاثة.

وجَّه نداءه لطاقم السفينة برفع درجة الاستعداد القصوى، وتأمين السفينة من كل النواحي والاتجاهات، وإنزال لنشات صواريخ تحسُّبًا لأي اعتداء، مع مسح المنطقة البحرية المحيطة بالسفنية والبحث عن إرهابي هرب الآن. أصبح مسعود صاحب البئر إرهابيًّا!

نظر في جوازي السفر:

- مصريان؟

- نعم مصريان.

ثم عقَّب:

- أكاد أشمُّ رائحة غير عادية على ظهر السفنية منذ أن صعدتما.

طلب منا أن نعترف بكل شيء، ومَن أرسلنا؟ مَن وراءنا؟ ماذا ننوي فعله في إسرائيل؟ لماذا جئتم بطريقة غير شرعية؟ لماذا تسللتم من جهة البحر؟

قلت لهدى:

- لا بد من حكاية كل شيء، وإلا سنكون ضحية للجاسوسية أو الهجرة غير الشرعية، أو أي تهمة جاهزة من الممكن أن يكون عقوبتها السجن مدى الحياة، أو الإعدام.

طلب ضابط السفينة من هدى أن تتكلم أولًا، كان يقترب منها ويتشممها. ترى هل سيسكر من عطرها ونستطيع أن ننجو؟ وإذا نجونا منه هل سنستطيع النجاة من تلك القوات التي تحيط بنا، والقوات الإضافية القادمة في الطريق؟

اعترفت هدى بنصف الحقيقة. لم يصدق الرجل حكاية الماء العاشق، زجاجة العطر، حمام كليوباترا، الجنيهات الذهبية، الياقوت

الأحمر، وإننا في طريقنا إلى مغارة جعيتا في بيروت، لم يصدق أننا لسنا إرهابيين.

طلب مني الحديث. حكيت له كامل التفاصيل ما عدا حكاية تدليك جسم هدى بالعطر. وجد تطابُقًا كبيرًا بين كلامينا، وجد تفاصيل أكثر عندي. بدأ يُصدِّقُنا خاصة أن رائحة العطر تملأ المكان، وتفوح بقوة ربما تصل إلى عاصمتهم في تل أبيب.

طلب مني أن أطلعه على الزجاجة التي في حقيبتي بدلًا من أن يفتش الحقيبة ويصادرها، وهو ما لم يفعله حتى الآن. أخرجت الزجاجة من مخبئها السري، ورغم أنها كانت محكمة الغلق، إلا أنه شمّها بقوة، وتأكد أنه العطر نفسه الذي تضعه هدى.

قال:

– هل يعقل أن تأتيا إلى بيروت من أجل فتح تلك الزجاجة والحصول على محتوياتها؟

شرحتُ مرة أخرى أن ليس أي شخص يستطيع فتحها، وإلا انسكب العطر وضاعت خصائصه.

قال:

– هذه أساطير .. لا تصدقاها!

– دولتكم قائمة على أساطير، ورد ذكرها في العهد القديم.

- أقرأت العهد القديم؟

- نعم.

- صدقني إذا قلت لـك إننـي لم أقـرأ معظمـه، إننـا لا نتعامـل في جيشنا القوي بمنطق الأساطير.

لم أشأ أن أجادله في مقولة "جيشنا القوي" وأذكّره بحرب السادس من أكتوبر التي حطمت أسطورة الجيش القوي هذا.

قلت له:

- نحن ذكرنا لك كل ما عندنا بكـل صراحـة ووضـوح. ولا شيء لدينا نخفيه.

- وزميلكم الثالث؟

- هذا من جِنِّ البحر، اسـمه مـسعود، ولكنـه اتخـذ شـكلًا بـشريًّا ليساعدنا على الرحلة، ونستطيع أن نراه.

- عُدنا لكلام الأساطير ثانية.

سألني سؤالًا مباغتًا:

- هل حكومتكم في مصر تعرف بمهمتكم (النبيلة) تلك؟

ارتبكتُ ولاحظ ذلك:

– لا لم يعرف أحد شيئًا عن كل ما جرى سوى خمسة أشخاص في مصر كلها.

– من هم؟

– أنا وهدى وبهجت الدسوقي (زميلنا في العمل) ووليم شكري (صاحب محل عطور) والفنانة ليلى علوي.

– وما دخل الفنانة في أسطورتكم تلك؟

– ستشارك في تأسيس شركة عطور مع شركة فرنسية عن طريق عطرنا هذا.

– أنت أوجعت لي دماغي بعطركم هذا، ولكن المشكلة أنني أشمُّه فعلًا، فهو واقع شمّي أعيشه الآن.

– المهم أن تتأكد أننا لسنا إرهابيين، وجئنا هنا بطريقة المصادفة، أو بالخطأ، أو أنكم تحتلون جزءًا من الممر البحري السري بين الإسكندرية وبيروت.

– نحن لسنا دولة احتلال، والبحر كله ملكنا.

– أنتم دولة احتلال بالفعل، تحتلون الأراضي الفلسطينية منذ أن بدأتم تنفذون خطة هيرتزل ومقررات مؤتمر بازل عام ١٨٩٧، وتعمق هذا الاحتلال بصدور وعد بلفور عام ١٩١٧، وتوسعتم في الاحتلال بعد عامي ١٩٤٨ و١٩٦٧.

- لا تجعلني أعـود فأُصـنِّفَك إرهابيًّـا أنـت وزوجتـك. وسـأعتبر حكايتك عن هذا العطـر وسـيلة قـذرة للتـسلل إلى دولتنـا والتخطـيط لأعمال إجرامية إرهابية.

- لماذا يغضبكم قول الحق؟

- لأنه ليس حقًّا من وجهة نظرنا.

بعد عدة اتصالات تليفونية وإشـارات لاسـلكية بينـه وبـين عـدة جهات، قال:

- ستشرفوننا في تل أبيت بعض الوقت.

ثم مدّ يده إلى حقيبتـي واسـتولى عـلى بعـض الجنيهـات الذهبيـة، وبعض الياقوت الأحمر، قائلًا:

- أنتظر عطركم.

عاتيد بن يامين

تم احتجازنا في فندق أمني بتل أبيب.

قلتُ لهدى أكيد يشاهدوننا الآن عن طريق كاميرات مزروعة بالحجرة.

- هذا شي بديهي.

بعد الإفطار بحجرة الفندق، صعد شابٌّ أبيض أنيق وسيم طويل ذو عينين خضراوين، كأنه نجم سينمائي أمريكي، يتحدث العربية بامتياز. طلب أن نعيد عليه كل ما قلناه لضابط السفينة. طلب رؤية زجاجة العطر بعد أن شمّ رائحتها ورائحة هدى التي تُعبِّق الفندق بكامله. أخرجتُها من مخبئها.

شمّها بقوة مرات عدة. سألني:

- كم عرضت عليكم الشركة الفرنسية؟

- مليون يورو.

- أنا أعرض عليكم ١٠ ملايين دولار، مقابل التنازل تمامًا والآن عن تلك القنينة.

نظرتُ إلى هدى، ونظرتْ لي ثم سألته:

- من سيفتحها؟

- ليس لكم علاقة بها. نحن سنتصرف.

- اسمح لي. أنا لم أتعرف إليك بعد.

- أنا عاتيد بن يامين صاحب أكبر شركة عطور في القدس، ولنا فروع في تل أبيب وأشدود والعفولة وديمونة وغيرها، كما لنا فروع في معظم بلاد أوروبا ومنها فرنسا وتحديدًا في باريس ومرسيليا. كما لنا فروع في المغرب والأردن وجنوب أفريقيا، وأفكر الآن في فتح فرع في مصر عن طريقكما.

قلت له:

- نحن معنا شركاء ولا بد من استشارتهم.

سلَّمني جهاز تليفون محمول وقال:

- استشرهم كما شئت يا عمر. أمامك يومان للتفكير والاتصالات والاستشارات. سوف نؤمن لك الخروج من هنا أنت

وزوجتك والعشرة ملايين دولار، بالطريقة التي تحبها، إما بالطائرة إلى مدينتك الإسكندرية، أو العودة عن طريق الممر البحري السري الذي جئتما منه، ولا أعرف كيف تم هذا دون علمنا. أيضًا لو أحببتَ أن نحوّلها على حسابك البنكي ليس لدينا مانع، بدلًا من حمل مبلغ كبير كهذا قد يصادر منكما في مطار برج العرب بثغركم الجميل الذي ولد فيه جدي لأبي.

ثم أخذ يضحك قائلًا:

- أم أنك ستتبع طريقة عادل إمام في مسلسله الذي أضحكنا هنا في تل أبيب "فرقة ناجي عطالله" بعد أن سرق الملايين من البنك؟

- أنت إذن من أصول مصرية سكندرية؟

- نعم، جدي ولد وتربى في حارة اليهود في الإسكندرية، كان يملك محل ذهب في شارع فرنسا بالمنشية، وكانت له فيللا في عزبة جون بالطابية على طريق رشيد قبل أن يهاجر إلى إسرائيل، ويتزوج طبيبة نمساوية يهودية قدمت مع أهلها إلى تل أبيب. كان جدي دائما ما يحدثني عن الإسكندرية، وكيف كان يحبها، وفي بعض اللحظات أحسست بندمه الشديد على هجرانه الإسكندرية ومجيئه إلى هنا. وهنا كوّن مع والدي أكبر شركة لصناعة العطور، لقد شعر أن تجارة الذهب لن تكون ناجحة في تل أبيب، مثلما كانت عليه في الإسكندرية. إلى جانب تعليمي اللغة العبرية، والإنجليزية، والفرنسية، كان جدي حريصًا على أن يعلمني اللغة العربية أيضًا. كان يتوقع أنني سأزور مصر

والإسكندرية في يوم ما، أو ربما أستقرُّ هناك نهائيًّا خاصة بعد توقيع معاهدة السلام عام ١٩٧٩ بين مصر وإسرائيل، وأستعيد أملاك الأسرة من محلات وأراضٍ وفيللا عزبة جون وغيرها.

- لهذا تُجيد اللغة العربية كما لاحظت؟

- نعم.. وأحفظ الكثير من الشعر العربي القديم والجديد، قرأتُ كل أعمال كاتبكم الكبير نجيب محفوظ، عرفت القاهرة القديمة من خلال أعماله. أكاد أحفظ مقاطع كاملة من "الحرافيش" و"أولاد حارتنا"، كما أنني من أكثر المستمعين إلى الست أم كلثوم في تل أبيب، وأكاد أحفظ كل أغانيها. أعود إلى موضوع قنينة العطر، أقول لك: إنني أقدم لك فرصة ذهبية، قد لا تجدها ثانية، خاصة أنك في بداية حياتك الزوجية كما علمت، ولم تدخل بزوجتك بعد.

- وإذا لم تكن هناك موافقة من شركائي؟

- ستكونان أسيرين لدينا في تل أبيب، ونبلغ حكومتكما أننا عثرنا على جاسوسين مصريين جاءا إلى تل أبيب بصحبة جنبي عن طريق البحر، وسوف تطير هذه الأخبار عن طريق وكالات الأنباء العالمية إلى أرجاء الدنيا.

- تتحدث وكأنك تعمل في جهاز المخابرات الإسرائيلية (الموساد).

- ومَن أدراك أنني لا أعمل به؟

رغم علمي بأن كل مكالمات الفندق مسجلة، ومشاهدة، فقد اتصلت بعد نزوله بوليم شكري. شرحت له الموقف تمامًا. وكيف تم أسرنا هنا؟ كان رأي وليم شكري أن نقبل تلك الصفقة، لضمان سلامتنا أولًا، ولأنها أضعاف حجم الصفقة الفرنسية ثانيًا، وأنه على استعداد لأن يفتح فرعين لشركة العطور الإسرائيلية في القاهرة والإسكندرية. لم يعجبني في كلامه ثالثًا.

حكيت لهدى ما سمعته من وليم شكري. جلست أفكر. قالت: ثالثًا هذه لا تهمنا في شيء، لسنا نحن الذين سفنتح فروعًا إسرائيلية في مصر، إنه وليم شكري.

- ولكنا سنسهل له الأمر هكذا.

إذن فلأتصل ببهجت الدسوقي الذي فوجئ بوجودنا في تل أبيب، ولم يُعطِني رأيًا محدَّدًا وصريحًا، ولكن عندما أخبرته باتصالي بوليم شكري، قال إنه مقتنع برأيه تمامًا.

- ليلى علوي .. أليست شريكة معنا؟

قال الدسوقي:

- هذا مجرد كلام معها، ولا يوجد شيء صريح أو مكتوب.

- معذرة بهجت أنا أعتبرها شريكة معنا، ولا بد من معرفة رأيها، سأتصل بها وأعرض عليها الأمر.

خلال عدة ساعات لم أتلقَّ سوى عبارة "عفوا .. الرقم الذي تحاول الاتصال به خارج منطقة التغطية .. اتصل في وقت لاحق".

جولة في تل أبيب

في صباح اليوم الثاني زارنا عاتيد بن يامين، قال إنه لم يأتِ هذه المرة من أجل الزجاجة، ولكن جاء ليصطحبنا معه في جولة تل أبيبية، لنتعرَّف المدينة قبل أن نتركها.

قالت هدى:

– ولِمَ لا؟ لن نظل طوال اليومين محبوسين في الفندق.

خرجنا مع عاتيد بن يامين الذي كان يحاول بكل الطرق أن يكون لطيفًا ومجاملًا إلى أبعد الحدود، على غير عادة اليهود، أو على عكس الصورة النمطية المعروفة عنهم.

أخذنا عاتيد إلى متحف تل أبيب للفنون، وقال بلغة المرشد السياحي: إنه متحف بلدي، وهو أحد أهم المؤسسات الفنية والثقافية في إسرائيل. يوجد في المتحف قسم للفنون الإسرائيلية الذي يشمل

مجموعة غنية من الأعمال الفنية المحلية من بداية القرن الـ ٢٠ وحتى أيامنا هذه، قسم للفنون الحديثة والمعاصرة التي تشمل أعمالًا فنية عالمية من القرن الـ ١٩ وحتى أيامنا هذه، قسم للرسم والمطبوعات، قسم للتصوير، قسم للتصميم والهندسة المعمارية، قسم لفنون القرن الـ ١٦ حتى الـ ١٩. بالإضافة إلى المعارض الثابتة والمتغيرة في جميع المجالات الفنية، يقدّم المعرض مجموعة متنوعة من البرامج والفعاليات للبالغين، كما يقدم حفلات موسيقية للشباب والأطفال.

لفتني في هذا المتحف لوحة تحمل عنوان "انتصار الموت" لفنان تشكيلي يهودي، قال عاتيد اسمه، ولكن نسيته فورًا، وهي لوحة متقنة تتناول موضوع الهولوكست أو محرقة النازية الألمانية لليهود، أو الإبادة الجماعية لهم في ألمانيا.

عدا ذلك كنتُ في شكٍّ أن محتويات المتحف من صنع اليهود أو الإسرائيليين، ولكنها منقولة من دول أخرى ومن حضارات أخرى، وتم أسرلتها.

يبدو أن عاتيد لاحظ أنني في حالة شكٍّ، فأراد أن يضفي مسحة تاريخية على المتحف، فقال موجهًا كلامه لهدى بلهجته الإرشادية التي تؤكد أنه سبق له العمل في مجال الإرشاد السياحي:

– كانت بداية المتحف في عام ١٩٣٠ بمبادرة رئيس بلدية تل أبيب حينها مئير ديزينغوف. وأُقيم المتحف في بيت رئيس البلدية ثم نقل إلى موقعه الحالي عام ١٩٧١، ويحوي ست صالات للعروض على

مساحة تبلغ أكثر من أربعة آلاف متر مربع. ويتمحور عمل المتحف في المعروضات الفنية، ثم في الفعاليات التربوية والاجتماعية الثقافية التي يقوم بتنفيذها على مدار السنة. ويولي المتحف اهتمامًا خاصًّا بتثقيف الطلاب والشبيبة على تذوق الفنون من خلال وضع برامج تعليمية وتثقيفية خاصة يشارك فيها مدرسون.

ثم نظر إليَّ مُوجهًا كلامه ناحيتي:

– إلى جانب المتحف توجد مكتبة كبيرة تحوي حوالي خمسين ألف كتاب من مراجع ومصادر لها علاقة مباشرة بالفنون المتنوعة التي يعتني بها المتحف.

وأضاف مُشيرًا بيديه إلى جهة اليمين: ينظم المتحف عروضًا متنقلة في المدارس والمؤسسات التربوية في مختلف أنحاء اسرائيل بهدف تقريب مواضيع الفنون إلى قلوب الطلاب ونفوسهم الذين ليس بإمكانهم الوصول إلى المتحف والتمتع بمعروضاته المختلفة.

سألته:

– ألا يوجد كافيه في المتحف نتناول فيه شيئًا من القهوة؟

اعتذر بشدة أنه لم يضيفنا في الكافيه حتى الآن لنحتسي شيئا وقال:

– تفضلا من هنا.

من خلال تعامله مع رواد الكافيه والعاملين به تأكدت تمامًا أن عاتيد كان يعمل بهذا المتحف من قبل. لذا اختاره لتكون أول زيارة نقوم بها في جولتنا.

خرجنا بعدها إلى شوارع المدينة التي كانت تسمى "يافا" من قبل، وتذكرت برتقال يافا وموالح يافا الفلسطينية. قال عاتيد: إن تل أبيب مدينة تتغير باستمرار، وبها كل شيء يرغبه الإنسان، وقد صنفت مؤخرًا أفضل ثالث مدينة في العالم ضمن عشر مدن عالمية كان أولها نيويورك، ووصفها بأنها "المدينة التي لا تنام".

أخذنا عاتيد في جولة على شاطئ تل أبيب، إلا أن البحر هنا ليس له أي حضور مثل بحر الإسكندرية، سألته ضاحكا:

- ألا يوجد لديكم بئر مثل "بئر مسعود"؟

وجدته على علم بحكاية "بئر مسعود"، فجده لم يترك صغيرة أو كبيرة عن الإسكندرية وحكاياتها إلا وحدثه عنها، وواضح أن الفتى عاتيد يخزن في عقله ووجدانه كل حكايات جده.

أراد عاتيد أن نذهب إلى أحد المطاعم العربية الفاخرة في تل أبيب نتناول فيه الغداء، لكني فضلتُ أن نعود إلى الفندق بعد هذه الجولة الصباحية، قال عاتيد:

- سأترككما إذن للاستراحة، ونلتقي مساء للذهاب إلى الأوبرا أو ملهى ليلي.

قلت له:

-لاليس هناك داعٍ. نودُّ أن نأخذ قرارنا الليلة، وسوف نبلغك به صباحًا إذا مررت علينا.

- على راحتكما، سأمر عليكما في صباح الغد لأعرف ما قراركما!

دخلت حجرتنا بالفندق، فوجدت رقًّا مختومًا بالشمع الأحمر، على سريري. سألتني هدى:

- ما هذا؟

- يبدو أنها رسالة من عصور قديمة، عندما كانوا يستخدمون الرق والجلود في الكتابة.

أزلت الشمع الأحمر من على لفافة الرق، كانت رسالة موجهة لنا تقول:

- اقبلا عرض عاتيد بن يامين كي تنقذا نفسيكما من مصير بائس!

هل الرسالة من عاتيد نفسه، أم من جهة إسرائيلية عليا، أم من مسعود الذي اختفى فجأة لحظة أن تم أسرنا، لقد شاهده قبطان السفينة وسألنا عنه، لكنه فجأة اختفى من الوجود أمامنا.

استبعدتُ فكرة هدى أن تكون السفارة المصرية في تل أبيب هي التي أرسلت لنا تلك الرسالة. قلت لها:

- أظنُّ أن السفارة لا تعلم شيئًا عنا، ولا ما يحدث لنا هنا، ونحن أيضًا لم نتصل بها ولا نعرف حتى مكانها بالمدينة، ولم يحدثنا عنها عاتيد.

قلت لها:

– هل تظنين أننا لو اتصلنا بالسفارة المصرية لحللنا الأزمة، أبدًا الأزمة ستتعقد أكثر، ولن يصدقونا، وربما يتم ترحيلنا واستجوابنا في مصر عن كل ما حدث.

بعد نقاش هادئ توصلنا إلى ضرورة بيع الزجاجة أو القنينة إلى عاتيد بن يامين، ولتنعم بها إسرائيل وما وراء إسرائيل، ضمانًا لسلامتنا.

سألتني هدى:

– من أين نضمن أنه سيدفع المبلغ الذي ذكره: عشرة ملايين دولار؟

– لا ضمان بطبيعة الحال. إنه لو أخذ الزجاجة وتركنا لحالنا دون أن يدفع دولارًا واحدًا ما استطعنا أن نفعل له شيئًا.

– ليس أمامنا سوى الموافقة على عرضه.

أخذتُ أُقلِّب في قنوات التلفزيون إلى أن عثرت على الفضائية المصرية، ثبت المؤشر عليها، وبطبيعة الحال لم نجد أي إشارات إلى مشكلتنا في إسرائيل.

قلت لهدى:

– تخيلي لو نفَّذ عاتيد كلامه بإخبار وكالات الأنباء العالمية عنا، لكانت أخبارنا تتوالى في كل المحطات الفضائية، وكانت صورنا الآن تعرض على الفضائيات المصرية وخاصة في برامج التوك شو، ولكان

ضيوف تلك البرامج من محللين وخبراء ونشطاء يؤكدون أننا من أعداء الوطن ومن المطبعين مع العدو الإسرائيلي، كوننا وصلنا إلى تل أبيب فجأة ودون إذن من الحكومة المصرية. فعلًا يا هدى لا يوجد أمامنا سوى الموافقة على عرض عاتيد، ولكن كيف ستكون طريقة العودة؟

العودة إلى الإسكندرية

نسيتُ أن أسأل عاتيد: ماذا سيُسمي العطر الجديد؟!

قطعت بنا السفينة الإسرائيلية عدة كليومترات داخل البحر المتوسط، وجدنا سفينة أخرى في انتظارنا، نقلنا لها حقائبنا الجديدة التي بها عشرة ملايين دولار والمغلفة ضد الماء. لم نكن سعداء بالحصول على ذلك المبلغ الضخم الذي يعادل أكثر مائة مليون جنيه مصري، والجنيهات الذهبية الكثيرة وأحجار الياقوت الأحمر التي حصلنا عليها بالنفق البحري في رحلة الذهاب. كانت الزجاجة في حد ذاتها ثروة لا تقدر بمال، كانت تحمل لنا آمالًا وأحلامًا عريضة ونظرة أمل وتفاؤل، رغم ضآلة المبلغ المعروض من الشركة الفرنسية أمام المبلغ الذي دفعه عدًّا ونقدًّا عاتيد ين يامين. مائة مليون جنيه، وجنيهات ذهبية كثيرة قادرة على إسعادنا وتحقيق كل آمالنا وأحلامنا، ولكن بالرغم من ذلك لم نحسّ أننا سعداء بها.

بعد أن سارت السفينة الأخرى عدة أمتار في عـرض البحـر، قفـز على متنها مسعود، لم يتحدث معنا في أي شيء، كنتُ أريد أن أسأله عـن الرق، وهل هو الذي أرسله لنا؟

قال:

– الرياح مواتية جدًّا الآن، سوف أدعو ربي وأسخر قدراتي لنعبر البحر إلى الإسكندرية في دقائق معدودات.

طارت السفينة، حطت على صـخرة ميـامي، اختفـى مـسعود كـما ظهر. واختفت معه السفينة التي كانـت تقلنـا. أخـذنا قاربًـا مـن عنـد الصخرة وحتى شاطئ سيدي بشر.

دخلت شقتي مع هدى، وجدت الماء العاشق في انتظارنا. كان على علم بكـل مـا جـرى. أبلغنـي بالـذهاب مـع هـدى إلى مقابلـة أم المـاء وكيلوباترا بعد فجر اليوم التالي.

قالت جنية البحر: إنهـا قـدرت كـل المعانـاة التـي تعرضـنا لهـا في إسرائيل، وأنها توقعتها وحذرتنا منها، لذا أرسلت لنـا رقًّـا تقـترح فيـه الحل الأمثل للمشكلة التي تعرضنا لها قبل الوصول إلى بيروت، ولكنها كانت في الوقت نفسه سعيدة بالحصول على المقابل المادي لهذه المتاعـب حيث نستطيع أن نبدأ حياتنا بداية جيدة.

في الوقت نفسه كانت كليوباترا تنظر بإمعان وتدقق في وجه هـدى التي قامت بتجميل نفسها وتمشيط شعرها على الهيئة الكيلوباترية، منـذ ما قبل الفجر.

قالت كيلوباترا:

- أنتِ تذكرينني بنفسي، ورائحتك هي رائحتي.

وقامت باحتضانها. وذكرتنا بالزجاجة أو القارورة أو القنينة الموجودة بجوار بئر زمزم.

قلت:

- مغامرة جديدة للحصول على القارورة؟

- هيئ نفسك لها.

- لا بد من خطة ومعاونة.

- نحن معك.

قلتُ أداعبها:

- ألا يوجد شيء في بئر يوسف؟

قالت بجدية:

- سمعت عن هذه البئر التي احتضن النبي يوسف صغيرًا، ولكن لم أسعَ إليها.

استأذنتُ من مليكة البحار وسيدة الأقمار وأم الماء، أن أتحدث قليلًا إلى الملكة كليوباترا، ملكة الملوك. أشارت بالموافقة، وتطلعت إلى سماع الحوار لتعرف المزيد من الأحوال والأخبار.

قلت لها:

- هل تعلمين سيدتي أن الإسكندرية التي ظلت عاصمة لمصر طوال تسعة قرون، لم تعد الآن عاصمة لمصر؟

- علمت ذلك للأسف، ولكن ما السبب؟

- بعد موقعة أكتيوم عام ٣٠ قبل الميلاد واحتلال الرومان لمصر، جاء الفرس يناوشون الروم على الحدود المصرية، وظلت الأطماع قائمة والصراع دائرًا بين الفرس والروم على مصر وخيراتها. ثم ظهر الدين الإسلامي في الجزيرة العربية، وتحديدًا في المكان الذي قمتِ بزيارته عند بئر زمزم، أو في مكة المكرمة. أخذ المسلمون يتوسعون في الحكم وفي سيطرتهم على الأراضي المجاورة. في عهد الخليفة عمر بن الخطاب تم فتح مصر على أيدي القائد عمرو بن العاص الذي دخل الإسكندرية عام ٦٤٢ ميلادية وسط ترحيب من المصريين للخلاص من صراع الفرس والروم.

المسلمون لم يرحبوا بأن تكون عاصمتهم واقعة على البحر، لأنهم لا يعرفون فنون القتال في البحر، فنقل عمرو بن العاص العاصمة إلى رأس مثلث الدلتا، في الفسطاط ثم القطائع، وعندما جاء الفاطميون (فرقة من المسلمين اختارت اسم فاطمة بنت النبي محمد صلى الله عليه وسلم ليكون علمًا عليهم، كما سموا أنفسهم بالشيعة، تشيّعًا لعلي بن أبي طالب زوج السيدة فاطمة الزهراء وابن عم النبي محمد) عندما جاء

هؤلاء إلى مصر وحكموها، اختاروا عاصمة أخرى لهم أسموها القاهرة بنوها عام ٩٦٩ ولا تزال حتى الآن عاصمة لمصر.

- أيهما أجمل يا عمر؟ القاهرة أم الإسكندرية؟

- يا جميلة الجميلات، لم أجد بلدًا أجمل من الإسكندرية في الدنيا كلها. قالوا عن مصر: إنها أم الدنيا، وقالوا عن بيروت: إنها ست الدنيا، وأنا أقول عن الإسكندرية: إنها لؤلؤة الدنيا، وعروس المتوسط. هل تعلمين يا جميلة الشرق أن الكثيرين كتبوا عنكِ كُتبًا ومسرحيات وروايات وأفلامًا ومسلسلات تلفزيونية.

- مثل مَن؟

- مثل المؤرخ اليوناني بلوتارخ، والخطيب الروماني شيشرون وقد ظهر في عصرك، ولكنه لم يكن مُحبًّا لأنطونيو ولكِ سيدتي، والمؤرخ اليهودي يوسيفيوس الذي وصفك بأوصاف غير مهذبة لا يليق المقام بذكرها هنا. والفارس الروماني لوكان الذي كان يكن لك كراهية غير مفهومة ووصفك - عفوا - بأنك "عار مصر"، وشبهك بهيلين الإسبرطية التي قرأنا عنها في إلياذة هوميروس، وعرفنا دورها الكارثي في حرب طروادة، وكتب مؤرخ ألماني اسمه مانفريد كلاوس "كليوباترا ملكة الملوك جالبة الخراب للإسكندرية". وكاتب ألماني آخر هو إميل لودفيج الذي وضع كتابًا كبيرًا عنك عام ١٩٣٧ يحمل اسمك "كليوباترا" قام المترجم الفلسطيني عادل زعيتر بترجمته إلى لغتنا العربية. ويتساءل الباحث والمؤرخ المصري بسام الشماع: لماذا مات أو

قُتل أو انتحر أو هُزم أو انكسر كل من اقترب من هذه السيدة؟" وغيرهم وغيرهم يا سيدتي.

ولكن أحب أن أذكر أيضًا وليم شكسبير أشهر شاعر إنجليزي على مر العصور، وتُوفِّي عام ١٦١٦، وأحمد شوقي أمير الشعراء العرب وتُوفِّي عام ١٩٣٢ وكتب أولى مسرحياته الشعرية بعنوان "مصرع كليوباترا".

ضحكت كليوباترا من العنوان وقالت:

- أنا أمامك، لم أُصرع بعد!

- وكتب أحدهم عن قبرك قائلًا: "هنا ترقد سيدة قبرها هو طموحها".

- وهل عرف مكان قبري، وتأكد أنني أُدفن فيه؟ أنا أمامك أحيا حياة الخلود، وهو طموحي الذي ربما قصده هذا الكاتب.

أنا لم أمت في عام ٣٠ قبل الميلاد ياعمر، كما تقول الكتب ويذكر بعض المؤرخين، لكن نجحتُ في الهروب من الغرفة التي حاول أن يأسرني فيها أكتافيوس أغسطس – الذي للأسف سموا شهر أغسطس باسمه، ولم يسموا يومًا باسمي أو اسم أنطونيو أو حتى قيصر – اتجهتُ للشاطئ وسبحتُ فيه طويلًا إلى أن التقيت أم الماء التي فحصت جسدي، أنبأتني أن سمّ ثعبان الكوبرا الذي وضعته على رقبتي ما هو إلا ماء الخلود الذي سرى في جسدي، اقترحتْ أن أعيش معها هنا

وأنسى كل ما حدث لي. وافقتها. على الرغم من ذلك هناك من جُـنَّ بي ووصل جنونهم إلى الادعاء بأنني اتخذت كيان مريم العـذراء وأنجبـت المسيح عليه السلام.

– لقد أصبحتِ يا مليكتنا رمزًا للجمال والدهاء والقوة والأنوثـة، وأيقونة تاريخية العالم كله يدرك أهميتها، خاصة أنـك آخـر امـرأة تحكـم مصر وما جاورها نحو عشرين عامًا، أو نحو نصف عمرها في الأرض، لذا أصبحتِ شخصية تاريخية عظيمة مثيرة للجدل والحيرة.

– بالتأكيد ستأتي لي بتلك الكتب التـي كُتبـت عنـي شـعرًا ونثـرًا، لأقرأ وأضحك ممن كَتب دون أن يعرفني معرفة حقيقية، ولم يعاصرني.

– أعرف أنك تحبين الكتب والثقافة وتجيدين الكثير مـن اللغـات، وقـرأت أن أنطونيـو أهـداكِ ٢٠٠ ألـف مخطوطـة بعـد حريـق مكتبـة الإسكندرية .. بعض المؤرخين اتهموا الفاتح العربي عمرو بـن العـاص أنه أحرق مكتبة الإسكندرية بعد فتح مصر بناء على أوامـر مـن الخليفـة المسلم عمر بن الخطاب؟

– لا .. لا يا عمر .. لقد شاهدتُ حريق مكتبة الإسكندرية بنفـسي وفي عهدي، عندما كان قيصر في الإسـكندرية .. امتـدت ألـسنة نـيران السفن المحترقة إليها من جهة البحر. كانت الريح قوية والسفن في الميناء كثيرة .. والنار مشتاقة للكتب .. كنت واقفة في شرفة قصري أتـابع مـن بعيد .. إنه يوم لم أنسَه حتى اليوم. أخـذت أصـيح وأبكـي: مكتبتـي .. مكتبتي .. جننتُ .. خرجتُ .. جريتُ إلى أماكن الحريق أحـاول إنقـاذ

الكتب التي كانت تتفحّم أمام عيني .. تفحمت رقائق الكتب .. ولفائف العلوم والآداب والفنون والفلسفة. هل هو انتقام روماني من حضارة الإسكندرية العظيمة؟ حاول قيصر أن يتبرأ من تلك الفعلة وأنه لم يأمر جنوده بحرق السفن. ولكنه في الوقت نفسه لم يأمر جنوده بسرعة إطفاء النيران المشتعلة، والتي أنشبت أظفارها في جدران المكتبة وتوغلت بداخلها في سرعة البرق .. حاول أن يدافع عن نفسه .. الشكوك حاصرتني مثلما حاصرت النار مكتبتي. وعدني قيصر أن يعوضني بكتب أخرى تملأ رفوف المكتبة بعد بعثها إلى الحياة من جديد.. لكنه لم يفِ بعهده. وعندما جاء أنطونيو أهداني ما عجز قيصر عنه. وضعت الكتب واللفائف والرقائق والمخطوطات الجديدة في مكتبة قصري. لا أريد أن أتذكر هذا اليوم .. فقد كان من أسوأ أيام حياتي .. أسوأ من معركة أكتيوم يا عمر.

– فلنبتعد عن هذا اليوم المشئوم. وأقول لك: إن المصريين أعادوا بناء المكتبة من جديد، وافتُتحت في ١٦ أكتوبر من العام ٢٠٠٢ في نفس مكانها القديم تقريبا.

– عظيم .. عمل رائع ..

– وأخبرك يا جميلة الجميلات، إننا نفكر في إنتاج فيلم سينمائي عنك من وجهة نظر مصرية خالصة، سوف تؤدي البطولة فيه هدى إسماعيل زوجتي الجالسة أمامك الآن في انبهار، وإنني من سيكتب القصة والسيناريو والحوار. أريده فيلمًا جامعًا لكل الحقائق غير المشوبة

عنك وعن تاريخك العريض، لقد جئتِ يا سيدتي إلى العالم تحملين سيفًا ووعيًا وقرطاسًا ثقافيًّا، وتنويرًا عقليًّا وجمالًا ربانيًّا وهو ما أريد التركيز عليه في هذا الفيلم، على الرغم من أنهم قالوا عنك إنك: "المرأة التي حيرت التاريخ".

- أنت رائع يا عمر. وزوجتك جميلة وتشبهني فعلًا ، فلا تظهرني بطريقة غير صادقة.

- إطلاقًا .. وأنا واثق أيضًا أن هدى تشرَّبت روحك، وعرفتْ كيف تتحدثين، كيف تفكرين، كيف تضحكين، كيف تحزنين، سوف تكون مقنعة أكثر من الأمريكية إليزابيث تايلور، والسورية سولاف فواخرجي، اللتين تقمصتا شخصيتك من قبل دون أن تجلسا إليك وترياكِ.

- هل ما زالوا يتحدثون عني في عاصمة مملكتي الإسكندرية؟

- طبعًا لم يزل أهل الإسكندرية وأهل مصر كلها يتذكرونك بكل فخر وحب، ولم يصدقوا الأقاويل الداعرة التي قيلت عن ملكتهم العظيمة، وعلى الرغم من ذلك هناك بعض ضعاف النفوس الذين لا يذكرون سوى بذخك وإغراءاتك وحفلاتك الصاخبة التي روّج لها الغرب حول شخصيتك الآسرة، وسأضرب لك مثالًا غريبًا حدث هنا في الإسكندرية منذ سنوات قليلة، بعد إذن مليكة البحار وسيدة الأقمار وأم الماء.

قالت السيدتان:

– أسمعنا يا عمر، فنحن في شوق لسماع أخبار أهل الأرض عن أهل البحر والخلود.

– لدينا في الإسكندرية متحف عريق يحمل اسم "المتحف اليوناني الروماني" يقع بالقرب من الحي الملكي القديم. وفي هذا المتحف يوجد تمثال رخامي عظيم الشأن لملكتنا الحبيبة كليوباترا، لم أدرِ مَن نحته على هذه الشاكلة العظيمة فقط ينقصه نفخة روح ليكون حقيقة ماثلة للعيان.

وقد لاحظ العاملون بالمتحف أن هناك شابًّا سكندريًّا يأتي كل يوم يدور حول التمثال سبع دورات، يتحسَّسه، يشمّه، يحتضنه في ولهٍ وفي شبق وكأنه يرى أمامه امرأة شبه عارية من لحم ودم. نبَّهه أحد المرشدين السياحيين بالمتحف أن هذا تمثال رخامي وليس امرأة حقيقية، ثم نهره بعد ذلك. لم يرد عليه، أو يلتفت إليه، كانت عيناه تفيضان بالوله والخشوع ثم الشبق والجوع. في يوم من الأيام دخل هذا الفتى المتحف، ولم يخرج، اختبأ فيه، حبسَ أنفاسه حتى حلّ الليل، وانصرف كُلُّ مَن بالمتحف من رحلات مدارس وزوار وسائحين وعاملين. سجلت كاميرات المراقبة التي تعمل ليل نهار بالمتحف، أن هذا الشاب أخرج كشافًا ضوئيًّا، أنار به المنطقة التي بها التمثال وخلع ملابسه وظل يضاجع التمثال بعد أن طرحه أرضا بسهولة ويسر، إلى أن وصلت شهوته إلى الذرى، وتدفق ماؤه على جسد التمثال الرخامي، مما عرضه للتلوث وإلى وجود بقع صفراء لم تنمحِ آثارها حتى الآن. يظن بعض

الزائرين الذين لم يسمعوا عن تلك الحادثة أن هناك عيبًا في صفاء رخام التمثال. أما الفتى فقد سجلت كاميرات المراقبة خروجه متسلِّلًا في الصباح الباكر عندما فتح المتحف أبوابه للزائرين، فكان أول الخارجين. قال بائع الفول المدمس الذي يقف بعربته الخشبية بجوار مبنى المتحف إنه لاحظَ شابًّا يخرج من البوابة الخلفية في الصباح الباكر، تبدو عليه آثار الإعياء والإرهاق، طلب منه أربعة ساندويتشات فول وطعمية. ثم مضى في طريق البحر قبل أن يأخذ الساندويتشات. وفي ظهر اليوم نفسه أعلنت شرطة الشواطئ أنها وجدت شابًّا غريقا في منطقة السلسلة القريبة من الشاطبي.

***

اتصلتُ بوليم شكري، أخبرته بعودتي، لم يصدق، طلب مني أن نلتقي. وطلبتُ منه أن يتصل بالشريكين: بهجت الدسوقي وليلى علوي.

– من حسن حظك أن ليلى علوي قادمة الأسبوع القادم إلى الإسكندرية.

– ربما أسافر الأسبوع القادم إلى السعودية؟

– لماذا؟

– لأداء العمرة أنا وهدى.

– سأتصل بليلى وأرى ظروفها.

الفورسيزون

نجوب المناطق الراقية في الإسكندرية للحصول على شقة زوجية مناسبة، تمسكتُ بالسكنى على البحر مباشرة في منطقة سيدي بشر. لم نجد ما يشبع رغبتا سوى الفور سيزون بسان إستفانو. أنهينا إجراءات الحصول على شقة ذات مستويين، وتأثيثها خلال أسبوع، فالنقود موجودة بوفرة والحمد لله. كانت أسعد امرأة على وجه الأرض، هي والدة هدى، أن ترى ابنتها تسكن في شقة ذات مستويين (أقرب إلى الفيلا) فخمة ومؤثثة بأفضل الأثاث وأجمله كالذي تراه في الأفلام السينمائية في القصور والفيلات.

عندما عرفت ليلى علوي من وليم شكري بميعاد حفل الزفاف، حضرت خصيصًا، وأهدت هدى عُقدًا ثمينًا من اللؤلؤ الطبيعي. كذلك حضر كل زملاء العمل وزميلاته، وأخذنا نصيبنا من الحسد

والقرّ، لكن كان الله يحمينا من عين الحسود، وكانت حماتي تقوم بتبخير ابنتها ببخور العود، وتقرأ آية الكرسي والمعوذتين.

لم يفهم زملاؤنا كيف حدثت هذه النقلة في وضعنا المادي والاجتماعي؟ ولكن بهجت الدسوقي أشاع أنني ورثتُ عمي الثري الذي يعيش في المكسيك بعد وفاته، حيث أنا الوارث الوحيد له، وصدَّقوه.

قال أحد الزملاء:

– أكيد ستقدم استقالتك من الشركة، فلم تعد تناسبك الآن! فلا تنسنا.

طلبت من الشركاء: ليلى علوي ووليم شكري وبهجت الدسوقي، ضروة عقد اجتماع، فقالت ليلى:

– افرح بعروستك يا عمر أولًا، أنت في شهر عسل.

– لا وقت يا مدام ليلى لدينا، هناك موضوعات مهمة لا بد من طرحها عليكم.

– إذن سأعود إلى الإسكندرية الأسبوع القادم ونلتقي.

– اسمحوا لي أن أستضيفكم في شقتي الجديدة في سان إستفانو بدلًا من ديليس، لنتحدث على راحتنا.

– وافق الجميع.

شرحتُ لهم كل ما حدث لي في تل أبيب، وذكرت لهم المبلغ الـذي حـصلت عليـه، لم أخبـئ شـيئًا، مـن طبيعتـي المـصارحة والمكاشـفة والشفافية، وأنني اتصلت بوليم شكري وبهجت الدسـوقي وأبلغـتهما. الوحيدة التي لم تكن تعي أبعاد ما أقول هي ليلى علوي، كـأنني أتحـدث عن أساطير أو خرافات أو أحكي حكاية من حكايات ألف ليلة وليلـة. عندما بدأت تستوعب ما أقول، وأن في هذا العالم الذي نعيـشه أحـداثًا فوق الواقع وفوق الخيال، بطبيعة الحال لم تصدق أن كليوبـاترا لا تـزال حية حتى الآن وأنها تعيش تحت الماء.

قالت:

- والله يا عمر لو أنا مثلت فيلما مثل هذا ما كان أحد يصدق.

- أنا أفكر في ذلك فعـلًا .. مـا المـانع أن تتحـول هـذه الحكايـات الواقعية إلى فيلم فانتازي أو غير واقعي؟

- ضحكت وقالت:

- والله فكرة. أقترح أن تمثل هدى دور كليوباترا وأنـا دور الجنيـة. هدى تميل ملامحها الآن إلى ملامح كليوباترا فعلًا.

قال وليم شكري:

- نحـن في انتظـار عودتـك بـسلامة الله مـن الـسعودية، ومعـك الزجاجة الجديدة.

- نعم .. وفي حالة عودتنا بالسلامة .. سيكون لنـا حـديث جديـد مع شركة العطور الفرنسية، قد نطالب بعرض أفضل.

- عندما تعود يكون لي حوار آخر.

وجهتُ حديثي لليلى علوي:

- أنا مستعد لإنتاج الفيلم.

- وانا سأفكر في اسم مخرج كبير.

فراق

الوحيد الذي كان حزينًا لفراقي شقتي في سيدي بشر، هو الماء العاشق.

كنتُ أنقُلُ بعض محتويات شقتي القديمة إلى شقتي الجديدة، فوجدتُه لا يبتسم ولا يضحك ولا يغني ولا يسيل ولا يميل، كان شبه مُتجمِّد.

- مالك؟

- ستفارقنا؟

- أنت تعلم أن هذه الشقة لا تصلح حاليا شقة زوجية، ولكنني لن أؤجرها ولن أبيعها. وسأجيء إليها باستمرار. لأراك.

- سأعود إلى العيش بين بئر مسعود وجزيرة ميامي التي جئتُ منها. فقد انتهت مأموريتي.

- كيف؟

- بخروجك من هذه الشقة، تنتهي مأموريتي المكلف بها من أم الماء، ومن الملكة كليوباترا السابعة.

- أتريدني أن أسكن هنا في تلك الشقة بعد الزواج؟

- لا .. يا صديقي الغالي. نحن نعلم تمامًا ما سوف تكونه أو تكون عليه، ولكنه الفراق الصعب.

- ألن تحضر فرحي وحفل زفافي؟

- نحن لا نصعد الأدوار العليا. غير مصرح لنا بذلك، وغير مصرح لنا بالعيش في مواسير مياه بشرية. نحن ماء حُرٌّ، ولا نحب أن نؤسر في ماسورة حديدية أو بلاستيكية.

- أفهم من ذلك أنني لو كنتُ ساكنًا في دور علوي بالعمارة نفسها في سيدي بشر ما كنتَ أتيتَ إليَّ؟

- فعلًا .. حظك أنك تسكن بالدور الأرضي، ففيه فوائد لا تعلمها.

ثم أخبرني أنه أخذ يبحث كثيرًا عن شخص في مواصفاتي في المنطقة المقابلة لبئر مسعود يسكن في الدور الأرضي. لم يجد سوى المطاعم والكافيهات والإعلانات والمحلات مختلفة الأغراض.

قال:

– كنتَ أنت الوحيد الذي بقي في شقته ولم يبِعْها أو يحولها إلى كافتيريا أو محل متعدد الأغراض، تمارس فيه أشياء غير مستحبة.

– وما السبب في ذلك؟

– ساكن الدور الأرضي في تلك المنطقة نعتبره امتدادًا جغرافيًّا لنا، امتدادًا جغرافيًّا للبئر والصخرة، ولو دققت النظر في الطبقة التحتية من أرضية شقتك ستجد أن البئر لها امتداد فيها، أو نفقًا من البئر إلى شقتك، وهو النفق الذي جئت إليك منه يا عمر. أرسلني مسعود بناء على طلب من جنية البحر، لمحاولة تحرير قنينات الملكة كليوباترا من مخابئها ليستفيد منها الناس والبشر من محبي العطور الأصيلة، بدلًا من وجودها في الكهوف والمغارات والآبار إلى الأبد.

– لن يبقى شيء على حاله. مع أن الجزيرة والبئر موجودتان منذ الاف السنين.

– أستودعك الله يا صديقي، أتمنى لك حياة سعيدة مع عروستك الجميلة التي سيكون لها شأن كبير. وسوف أبلغك بموعد احتفالنا بزواجك من هدى.

حفل زفاف تحت الماء

كأننا من رعاياها، أصرَّت الملكة كليوباترا على الاحتفال بزواجنا. أبلغني الماء العاشق بموعد حفل الزفاف تحت الماء. أحضرنا جهازي التنفس، وجدت دلفينًا ضخمًا ينتظرنا عند صخرة ميامي، ركبنا فوقه، فغاص بنا إلى الأسفل.

كان الماء يغني

الصخر يهني

والأسماك تطوف وتسعى حول العرش الملكي.

طلبت كليوباترا من هدى أن ترقص، فهي تعرف أن المصريات بارعات في الرقص، خاصة في الأفراح والليالي الملاح، ولا توجد أجمل من تلك الليلة. لم أعرف أنها تجيد الرقص الشرقي إلا عندما شاهدتها

الآن. تُقدِّم تابلوهات شرقية راقصة مثل التي قدمتها سامية جمال وتحية كاريوكا ونعيمة عاكف، إن لم تكن أروع.

أخذ الماء يصدر ألحانًا وأصواتًا إيقاعية، استجابت هدى لها، فقدمت ألوانًا أخرى من الرقص الشرقي والهندي والأفريقي، وفنونًا جديدة لم أشاهدها من قبل، ولم أعرف ماذا أسميها. قامت حوريات البحر وأخذن يرقصن مثلها. استخفَّ الرقص جنية البحر مليكة البحار وأم الماء، فأخذت تدندن في البداية، ثم قامت من على عرشها وأخذت تقلد هدى في حركاتها ورقصها واهتزاز جسدها وترددده وذبذباته. قالت:

– الآن أزوّج الشمس للقمر، والسماء شاهدة على ذلك.

انفعل الماء العاشق أكثر، فانقسمت ذرة من ذراته، وأصبح الأوكسجين في ناحية، والنيتروجين في ناحية أخرى، لم يعد ماء، ولكن ظهر العشق نفسه، بعد أن كان الماء العاشق، أصبح العشق ذاته كأجمل صورة رأتها عيناي، هل هو يوسف في مائيته الآن؟ أو يونس لحظة دعائه المخلص لله أن ينجيه وهو في بطن الحوت؟ الإنسان في لحظة الدعاء الخالص يتحول إلى جمال محض.

لم تستطع كليوباترا الجلوس طويلًا. قامت من على عرشها، اندمجت في الرقص، فظهرت مفاتنها، وكأنها ترقص وتغني لحبيبها أنطونيو في حمام كليوباترا، اختارت فتاتين من فتيات الماء، قالت لهما:

أيها البنتانِ هـــــذي ليلةُ العــيدِ الســـعيدِ

صَلِّيَا مثلَ صـــــلاتي واسجُدَا مثلَ سجودي

وبعد صلاتها، قالت لكل بنات الماء:

اجمعوا بالمُدام شَمْل النَّدامَى

وأديروا الكؤوسَ والأوتارا

واجعلوها وليمةً وبِساطا

يتبارى خلاعةً ووقارا

مصرُ إن أولمتْ سمتْ بالأغاني

درجاتٍ .. وأسمتِ الأشعارا

أخذتها الفرحة والنشوة، وكأنها حنَّت لأيامها السالفة مع أنطونيو، فأخذت ترقص وتغني قائلة:

الموجُ الراقصُ حولي

الصاعدُ نحو جبيني

لن يمطرَ إلا نورا ..

فوق عيوني

والبحرُ الماثلُ بين يدي

أضحى غربالا ..

تتسرَّبُ منه شمسي

فتناغمْ يا حسي

واسبحْ يا جسدي

داخلَ ينبوع الغفران

حتى تصبحَ مثل الحبّةْ

أو حتى تفنى ..

في ملكوتِ الرحمن.

هلَّلت بناتُ الماء، صِحنَ وهتفن في غنجٍ وتثنٍّ ورقص وفرح ومرح:

مرحَى مرحَى .. يحيا الفنُّ

يحيا الشعرُ .. يحيا اللحنُ

يحيا الرقصُ .. يحيا الحُسْنُ

يرقص الجميع إلا أنا ومسعود الذي كان جالسا يراقب في صمت ودهشة.

قمت من مكاني، بدأت في الرقص والغناء:

هيَّا .. هيَّا .. هيَّا

نعانقُ دربَ الضيا والشفقْ

ونلعبُ بين شعابِ السما

فتخضرُّ فينا بذورُ الغسقْ

كأنَّا خُلِقْنا قبيلَ السحابِ

أوَ أنَّ السحابةَ لم تَنبثقْ

كأنَّا رجعنا لروحِ الإلهِ

فكنَّا ضياءً ..

وكنَّا عَبَقْ.

تحولنا جميعا إلى راقصين، منجذبين إلى شيء ما، صوت ما، إيقاع ما، ندور في رقصنا، الذي أخذ شكل رقصة المولويه إلى مركز واحد نرقص حوله.

قالت أم الماء:

– من صافاه الحبُّ فهو صاف، ومن صافاه الحبيبُ فهو صوفي، إما الأنين وإما الحنين، ونحن الرياحُ بلا عاصفة.

ثم غنت قائلة:

فليكن الموجُ رسولا

– نسبحُ في صوتِهْ

كيما نتسامى نحو اللهْ

ولتكن الأحرفُ فوق القلبِ

سطورًا من وَلَهٍ وصلاه

ولتكنِ الشمسُ

- على الآفاق - هدايا

لليلِ وللشعرِ وللإنسانْ

وليكن القلبُ مرايا ..

للضوءِ وللحبِّ وللقرآنْ

قام مسعود عندما حضرت روح سيدي بشر. وجدتُها أمامي، عانقتني وباركتْ زواجي، عانقها مسعود، قالت:

- من يرضَ عنه الحق لا يرضَ عنه الخلق، ومن يصطفِ نفسه لا يصطفِه الحق.

أخذ مسعود بيديها ورقصا معا، مرددين:

الموجُ شموسٌ

تتسامرُ فوق المرآةْ

أقمارُ الحبِّ ..

تسافرُ خلف الأمواه

فتضيئُ الدنيا ..

وتضيئُ الأشياء

وتظلُّ الأسماءُ ربيعًا

وصراطًا .. يبسمُ للسعداء

ويظلُّ البحرُ شبابًا ..

يدعو .. كلَّ قصيدٍ للشعراء

ويظلُّ الليلُ ضياءً

يزهو .. فوق أهازيج الشطآن

ويظلُّ الموجُ شموسًا

تعدو .. فوق الكفّ ..

وفوق ينابيع الغفران

أمسكتُ هدى وضعت يدي حول خصرها، وأخذنا جميعًا نـرقص وندور إلى الأعلى، نرقص وندور ونرتفع إلى الأعـلى في خفـة ورشـاقة، انعدمت الجاذبية، ندور ونعلو، نعلو وندور، ونغني ونقول:

الحياةُ الحبُّ والحبُّ الحياةْ

هو من دوحتِها سِرُّ النّواه

وعلى صَحْرائِها مَرَّتْ يداه

فجرتْ ماءً وظلا وجنى

الحياةُ الحبُّ والحبُّ الحياةْ

رأينا الله يتجلى لنا، ينظر إلينا، نصعد إليه، ندور ونصعد، ننظر ونرقص ونصعد، يزداد النور نورا، نور على نور، نصعد في نور، نرقص في نور، ندور في نور، إلى أن وصلنا إلى العرش المائي الإلهي العظيم. باركنا الله، مسح بيديه على رؤوسنا جميعًا. تحسسنا رؤوسنا، فتجسدت السعادة بكل طاقاتها وجمالها ونورها.

رأيت كل المعاني الجميلة المجردة متجسدة أمامي. تحولتْ إلى كائنات آراها بعيني: السعادة، الحب، الخير، الحق، الجمال، الحكمة، العشق، الأحلام، الآمال، الخلود، الأمان. كلها أمامي متجسدة، تنتظر أن يأخذها أحد منا.

اخترتُ الخير والحق، واختارت هدى الجمال والحكمة، كليوباترا قبضتُ على الخلود، أخذت مليكة البحار السعادة، مسعود أخذ الأحلام، سيدي بشر أخذ العشق والأمان، وبقيت آمالنا جميعا واحدة، وحبنا لله وللكونِ وللطبيعة أعظم.

جاء الإيمان مرددًا:

أنا المكتوبُ في القرآنْ

أنا .. الإيمانْ.

سجدنا جميعًا .. يحلّق فوقنا الإيمان وروح الله ترفرف على المكان.

عباس النورس

عدنا إلى شاطئ سيدي بشر في منتصف الليل، وجدنا حياة غير الحياة، ودنيا غير الدنيا، وجدنا المقاهي والكافيهات والمحلات لم تزل تفتح أبوابها، وأضواء النيون والإعلانات تنير الشوارع الرئيسية والأزقة الجانبية. وبعض السكارى يترنحون على رصيف الكورنيش، وبائعات هوى يجلسن بالكافتيريات ينتظرن مَن يطلبهن.

وددتُ المبيت هذه الليلة في شقتي القديمة بسيدي بشر، وافقت هدى. كانت الشقة كما تركتُها من قبل صغيرة نظيفة لامعة، ولكنها خالية من الماء العاشق.

فتحتُ صنبور المياه الذي يأتي مباشرة من خارج العمارة، وليس من خزان المياه العلوي. تذكرت الماء العاشق، حين قال لي إنه ماء حر لا يعيش في خزانات المياه.

بعد قليل سمعنا رنين جرس الباب، فتحت هدى، وجدتْ امرأة تريد الدخول، وتسأل عن صاحب الشقة. خرجتُ من الحمام. وجدتها تجلس في صالون الشقة، تشعل سيجارتها، ترتدي ملابس مثيرة تُظهر لحمها الأبيض البض أكثر مما تستره، وعلى رأسها شعر مُستعار يميل لونه إلى الصفرة، وعلى وجهها كمية كبيرة من المساحيق والألوان، تتعطر بعطر رخيص الثمن، لا اسم له ولا رائحة، تسأل عن العشاء، وزجاجات الخمور.

سألتها: من أنتِ؟

- أنا يا حبيبي صاحبة صاحبتك.

- صاحبتي .. من؟

- هذه. وأشارت إلى هدى.

- هذه زوجتي، وليست صاحبتيْ.

ضحكت ضحكة عاهرة وفتاة ليل مستهترة وقالت باستنكار:

- زوجتك؟! الجميلة دي صاحبتي وكانت بتشتغل معايا.

- لم أتمالك نفسي من الغضب وقلت لها:

- اخرجي من بيتي يا سافلة يا منحطّة!

- لن أخرج إلا إذا أعطيتني المعلوم، سواء نمت معي أم لم تنم!

- بهذه الطريقة الحقيرة لن أعطيك مليمًا واحدًا.

تراجعت قائلة:

– يا بيه .. أنا غلبانة وأجري على كوم من العيال، ولم يطلبني أحد الليلة، كل صاحبة من صاحباتي ذهبتْ إلى ليلتها وصاحبها، ولم يبق سواي. وجدتك تدخل العمارة مع تلك الفتاة الجميلة التي تضع عطرًا غالي الثمن، قلت: ما المانع أن تقضي الليلة مع اثنتين بدلًا من واحدة.

عندما لاحظت أنني بدأت أنفعلُ ثانيةً، وقفت تستعرض عجيزتها الممتلئة الداعرة. قالت:

– ما ليش في الطيب نصيب. أنت رجل محترم. فلتدفع ما تدفعه؟

هزت هدى رأسها معلنة موافقتها أن أعطيها أي مبلغ لتنصرف بعيدًا عنا.

أخرجت من جيبي مبلغًا من المال، خطفته. قلت لها:

– لا أريد أن أرى وجهك مرة أخرى.

– أكيد ستراني مرة أخرى، لأحكي لك عما يقوله صاحب الكافتيريا المجاورة عن شقتك، هو يريد الاستيلاء على الشقة، بعد أن علم أنك لا تجيء هنا كثيرًا. إنه يريد أن تتسع وتكثر كافتيريات النورس بضم تلك الشقة.

– لقد حاول من قبل، وعرض عليّ بيعها، ورفضت، ولكن كيف عرفت هذا الأمر؟

– الكافتيريا مقر عملي، وزبائني يطلبونني منها، إما بالتليفون أو بالحضور شخصيًّا.

– وصاحب الكافتيريا، يعلم هذا؟

– المعلم عباس النورس هو الذي يوزعنا على الزبائن.

– لماذا تخبرينني الآن؟

– لأني وجدتُك رجلًا طيبًا ومحترمًا، وستقدر خدماتي لك. لقد عرف المعلم عباس أنك امتلكتَ فيلا في الفورسيزون في سان إستفانو، في رأيه أنك لن تحتاج إلى هذه الشقة الصغيرة التي هو في أمسِّ الحاجة إليها.

– لن أبيعها مهما يكن الثمن، وفي الصباح لي حديث معه.

– المعلم لا يأتي في الصباح، من الممكن أن تجده بعد المغرب.

قبل انصرافها قالت لهدى:

– حبيبتي عاوزة شوية برفان من البرفان بتاعك، إنه يجنن، أكيد سيجعلني مطلوبة كل ليلة عند زبائني.

قالت هدى:

– ليس معي سوى القليل جدًّا، لما أشتري زجاجة جديدة سأعطيك منها.

انصرفت تاركة وراءها همًّا ثقيلًا بخصوص الشقة التي لا أريد التفريط فيها.

قالت هدى:

- لا بد أن تقابل المعلم عباس وتؤكد له أنك لن تبيعها ولن تؤجرها.

- نحن ليس لنا أن نهجرها طويلًا، لا بد أن نحضر باستمرار ويعرف المعلم عباس وغيره من الطامعين فيها، أنها ليست للبيع نهائيًّا.

***

الكافتيريا تُعبِّق بدخان السجائر والمعسل السلوم والقصّ والتفاح، الزبائن كثر، وجدته في نهاية المكان يجلس بجوار النصبة (مكان عمل الشاي والقهوة وبقية المشروبات)، يحدق إلى الداخل والخارج. عندما رآني تهلل وقام مُرحِّبًا، قائلًا لأحد صبيانه: تعال شوف الأستاذ عمر يشرب إيه؟

- شكرًا يا معلم عباس. ألم أخبرك من قبل أني شقتي ليست للبيع ولا للإيجار.

- هذا قبل أن تمتلك - ما شاء الله - فيلا في الفورسيزون. ربنا يفتحها عليك كمان وكمان.

- ولكني مصر على أن الشقة ليست للبيع يا معلم. ثم لماذا هذا الأسلوب الرخيص، ترسل لي امرأة في منتصف الليل يا معلم، ومعي زوجتي.

– هي التي رأتك تدخل العمارة وفي صحبتك امرأة، فقالت تجرب حظها، لا تعلم أنها زوجتك. ولم تكن هي على ميعاد مع أحدهم.

– المهم يا معلم جئت لأخبرك للمرة الأخيرة، الشقة ليست للبيع ولا للإيجار.

– اسمع يا أستاذ عمر. هناك صفقة جديدة. أحدهم يريد شراءها. وليست لي ولا لتوسعة كافتيرياتي. هذا الأمر لم يعد يهمني.

– ماذا يهمك إذن؟

– جاء زبون هنا منذ يومين، مُصرًّا على شراء الشقة بأي ثمن كان. قلت أعرض عليك الأمر مجددًا، جائز أن يكون لنا عمولة جيدة من ورائها.

– مع أنني لن أبيعها مهما تكن الإغراءات، ولكن يهمني معرفة مَن هذا الزبون الذي يصر على شرائها، مع أن العمارات كثيرة في المنطقة والشقق الخالية المعروضة للبيع كثيرة.

– زبون أمريكي ولكنه يتحدث العربية جيدًا.

– أمريكي! ما اسمه؟

– قال إن اسمه: عاتيد بن يامين.

أخذتني المفاجأة، فقال المعلم عباس النورس: هل تعرفه؟

– إنه إسرائيلي وليس أمريكيًّا.

- إسرائيلي؟!

- نعم .. وقد قابلته من قبل، ولكنه لم يعرض عليّ شراء الشقة.

- لا .. ما دام فيها إسرائيلي، لن أسير في الموضوع. لا مؤاخذة يا أستاذ عمر، قد أتاجر في بعض الممنوعات، كما يفعل الكثيرون، قد أوفر المتعة لمن يريدها من الشباب أو الرجال الذين توجد مشاكل زوجية مع زوجاتهم، ولكن أن نبيع أملاكنا وأرضنا للإسرائيليين، هذا مرفوض تماما بالنسبة لي.

- هذا هو العشم يا معلم.

- أنا شاركت في معركة العبور عام ١٩٧٣، واستشهد عدد من أصدقائي أمام عيني، وكدتُ أموت أنا الآخر، ولكن ربنا كتب لي السلامة، وانتصرنا، وعدتُ إلى الإسكندرية.

- ليتك تكمل جميلك لهذا البلد يا معلم عباس، وتترك ما تتاجر فيه الآن أيضًا.

- أنت مثل ابني .. وأتقبل كلامك، ولكن ما باليد حيلة.

- عمومًا .. فكر في الأمر يا معلم. وإذا جاء عاتيد مرة أخرى أخبرني.

تركت له رقم الموبايل، مؤكدًا أنني سأكون موجودًا هنا في سيدي بشر دائمًا.

باريس

قبل أن نُقدِّم طلبًا للحصول على تأشيرة عمرة مع إحدى الشركات السياحية، اتصل بي وليم شكري. أخبرني أن الشركة الفرنسية عرفت أنك سلّمت الزجاجة لصاحب محلات العطور الإسرائيلي عاتيد بن يامين. لم أدرِ كيف انتشر الخبر، ليس بعيدًا أن يكون عاتيد نفسه هو الذي سوّق الخبر، مع تقديم عطره الجديد عطر "بن يامين" أو "بنيامين".

قال:

– إنهم في باريس يعتقدون أننا غير جادين، نتفق معهم ثم نتفق مع غيرهم، أو الذي يدفع أكثر حسب قولهم.

ثم أضاف:

– إنهم يريدون مقابلتك.

- هنا أم في باريس؟

- لم يحددوا المكان.

- نحن مستعدان للذهاب على نفقتهم إلى هناك.

- سأخبرهم وأردُّ عليك.

أخبرت هدى بما جرى، وقلت لها:

- استعدي للسفر إلى باريس!

- باريس .. أذهب إليها لأول مرة، يبدو أن العطر سيجعلني أزور بلادًا كثيرة.

جاء معنا وليم شكري الذي يتقن اللغة الفرنسية، فكان مترجمًا أمينًا.

قالت مندوبة المبيعات أديل التي أقرَّت أن عطر هدى هو العطر نفسه الذي يسوِّق له بن يامين وحصل على توكيلات كثيرة:

- كيف مسيو عمر تتفق معنا ثم تتفق مع الجانب الإسرائيلي؟

- أنا لم أتفق معكم على شيء.

تدخل وليم شكري موضحًا في عتاب رقيق:

- أنا أخبرتك يا عمر، وكان كلامي معك من أول وهلة واضحًا ومحددًا وصريحًا.

- صحيح، ولكن لم أرَ منكم شيئًا، كله كلام في كلام.

قبل السفر اتفقت مع وليم شكري ألا نبوح بكيفية حصول عاتيد على الزجاجة والطريقة التي سافرنا بها وعدنا. هم لن يصدقونا وسوف يظنون أننا نستهين بهم. وافقني شكري على ذلك.

قلت:

- أُقدِّرُ لكم حرصكم على التعاون معنا. وسأحضر لكم مفاجأة جديدة بزجاجة عطر ربما تكون أنفذ رائحة شريطة أن يسمى العطر الجديد "عطر كليوباترا".

- مسيو عمر من أين تحصل على تلك الروائح المركزة التي تكفي قطرة منها لإقامة مصنع عطور بكامله؟

ضحكتُ:

- هذا سر المهنة مدام أديل.

- أمامنا برنامج هائل لكم، ترون فيه مصانع عطورنا في باريس، وفرصة تشاهدون معالم باريس: برج إيفل، متحف اللوفر، السوروبون، الحي اللاتيني، الحي العربي، قصر فرساي، الأوبرا، المسلة المصرية في ميدان الكونكورد في نهاية شارع الشانزليزيه، قوس النصر، مسرح الآولمبيا الذي غنت فيه مطربتكم الشهيرة أم كلثوم قصيدة شعر رائعة اسمها "الأطلال" عام ١٩٦٧ بعد معركتكم مع عدوكم الإسرائيلي الذي سلمته قنينة عطوركم.

- ماذا تقصدين مدام أديل؟

- لا أقصد شيئًا مسيو عمر، ولكن فقط أشير إلى أن العلاقات الفرنسية المصرية كانت دائما أقوى من العلاقات الإسرائيلية المصرية.

- لقد تكاتفتم مع إسرائيل في عام ١٩٥٦ بمساعدة إنجلترا وضربتم مصر فيما يعرف بالعدوان الثلاثي على مدينة بورسعيد بعد أن أعلن الرئيس جمال عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس.

- أنت تذكر التاريخ جيدًا مسيو عمر.

- طبعًا، إنه تاريخ بلدي، وتاريخ المنطقة بأسرها.

تدخَّل وليم شكري ليُخفِّف من حدة المناقشة قائلًا:

- أين سنمضي سهرة الليلة مدام أديل؟

لم أرتح لأديل وأسلوبها في الحوار، قالت هدى:

- أكيد مفروسة منا لأننا سلمنا الزجاجة إلى منافسهم العتيد، عاتيد بن يامين.

قلت لأديل:

- أريد أن ألتقي مدير مصانعكم.

أحسَّت أنني أستصغرها فقالت:

- أنا رئيسة المبيعات والتسويق هنا مسيو عمر، ولي كل الصلاحيات بالاتفاق والتعاقد والشراء والبيع.

– جيد. عمومًا مع العطر الجديد سيكون لنا حديث آخر حول السعر. ولن نتفق على أي شيء إلا بعد إحضاره لكم.

عدنا من باريس. أبلغتُ بهجت الدسوقي، وليلى علوي بنتيجة الزيارة. فوجئُت باعتذار ليلى علوي عن استمرار الشراكة العطرية، مكتفية بتنفيذ الفيلم الذي اتفقنا عليه. هل ظنَّت أن هناك مشكلات ما، رأت أن تنأى بنفسها عنها؟

عبد الصمد المكي

بعد أن أنهينا الطواف حول الكعبة المشرفة، والسعي بين الصفا والمروة في البيت الحرام، وصلينا ركعتين في حجر إسماعيل، توجهنا إلى منطقة بئر زمزم وشربنا شربة هنيئة من مائه الزلال.

سألت نفسي وسألت هدى عن المكان الذي من الممكن أن تكون قنينة كليوباترا مُخَبَّأة به. لاحظت أن هناك أعمال حفر وردم وبناء وتطوير للمنطقة كلها. هل يعقل أن يكونوا طوروا من منطقة بئر زمزم وجعلوا أرضيتها من الرخام أو السيراميك وأحواضها مبردة، والبئر نفسها محاطة بسور حديدي، ومن الصعب الوصول إلى حافتها، دون العثور على القنينة؟

هل ما زالت مدفونة على بعد مترين فقط منذ عام ٤٠ قبل الميلاد وحتى يومنا هذا؟ هل الجانب السعودي عثر عليها في أثناء توسعات

الحـرم المتعاقبـة، وأهملوهـا، أو اسـتخدموها دون أن يعلنـوا عـن هـذا الاكتشاف الأثري العطري؟

قالت هدى: نسألهم!

– الأمر ليس بهذه البساطة، سندخل في جدل عقيم، وربـما يظنـون أننا مجانين، نسأل عن قارورة عطر منذ أكثـر مـن ألفـين وخمـسين سـنة. بالتأكيد هم لا يعلمون أن كليوباترا زارت المنطقة في هذا التاريخ الغابر. ولو علموا، من أين سيعرفون أنها خبَّأت قنينة أو قارورة عطرها بجوار بئر زمزم؟

إن البيت الحرام يزوره باسـتمرار شخـصيات مهمـة وعالميـة مـن البشر منها السلاطين والملوك والرؤساء والـوزراء والعظـماء في العلـوم والآداب والفنون مع الملايين التي تجـيء إلى هـذه البقعـة المقدسـة عـلى مدار العام، وخاصة في موسم الحج العظيم.

ثم ما مشروعيتنا نحن في الحصول عليها إذا وجدناها بمساعدتهم؟

نحن لا نمثل الحكومة المصرية، ولا توجد اتفاقات تـسليم قـوارير أو عطور بين البلدين، قد تكون هناك اتفاقية تسليم مجـرمين وخـارجين على القانون.

صعدنا درجات أخرجتنا مـن منطقـة البئـر، وقفنـا نتأمـل الكعبـة المشرفة، فالنظر إليها عبادة، مرَّ أمامنا شيخ طويل القامة بلحية بنية كثة، وجلباب أبيض وعلى رأسه غُترة بيضاء وعقال أسود، أعمل أنفـه، شـمَّ شيئًا ما في الهواء، ثم عاد إلينا. ألقى السلام، فرددنا بتحية الإسلام.

قال:

- أخي الفاضل أشمُّ عطرًا جديدًا هنا، لم أشمّه من قبل، ينبع من هذه الناحية، واشار إلى مكان وقوف هدى التي كانت تضع على رأسها طرحة بيضاء.

- فعلًا .. هذا عطر لا يوجد هنا في الحرم الشريف ولا في مكة كلها.

- أنا صاحب محلات عطور وبخور العود والعنبر بجوار الحرم اسمي عبد الصمد المكي وكذلك اسم محلاتي، أدعوك نشرب القهوة العربية والتمر أنت ومن معك.

- أنا عمر ياسين، وزوجتي هدى إسماعيل. من مصر.

- مرحبًا .. مرحبًا بأم الدنيا.

سِرنا معه، خرجنا من باب السلام بالساحة الشرقية من الحرم إلى شوارع مكة المكرمة. دخلنا محل عطور كبير ومضيء يعمل فيه عدد من الهنود والمصريين والسودانيين والباكستانيين.

بعد أن جلسنا مع الرجل، جاءنا شابٌّ مصري يحمل دلة القهوة العربية وفناجينها الصغيرة وطبق التمر. بعد مقدمات وسلامات وتحيات وشروحات عن أهمية العطور للإنسان، وما من إنسان إلا ويتعطر لأسباب كثيرة، ولا فرق بين فقير وغني، بين مسلم ومسيحي ويهودي وبوذي وزرداشتي ووثني، الكل يتعطر، ولا يوجد عطر حرام

وعطر حلال، ولكن يوجد عطر غالٍ وعطر رخيص. عـضر مـضروب (بلهجتكم المصرية) وعطـر أصـيل، عطـر ذو رائحـة نفّـاذة، وعطـر لا رائحة له، وليس فيه سوى اسمه، وهناك عطـر رجـالي وعطـر أنثـوي، وحديثًا عطر للأطفال.

وأضاف ضاحكًا، فبانت أسنانه البيضاء المستوية التي كـان يعمـل فيها السواك طوال الجلسة:

– الملوك تتعطّر والحاشية تتعطـر، الخادمـة تتعطـر، وربـة البيـت تتعطر، الأميرة تتعطر، ووصيفاتها يتعطرن، الوزير يتعطر والغفير أيـضًا يتعطر، بل أزيدك أن الجن أيضًا يتعطرون.

هناك من يستعمل العطر باستمرار ويوميًّا، وهناك من يـستعمله في المناسبات العادية، وهناك من يستعمله في المناسبات المهمة فقط، ولكـن القاعدة أن الكل يتعطر.

ولتبيان أهمية العطر لدى الملوك والملكات في العـالم القـديم ضرب مثلًا بقول لم أسمعه من قبل عن كليوباترا قال:

– ويكفي ما قالته ملكتكم الجميلة كليوباترا مـن قبـل: "بـالعطر وحده أنالُ ما أريد".

ثم أوضح لنا أنه من يقوم بتوريد العطور والبخور للقـصر الملكـي وقصور الأمراء في مكة المكرمة.

كنا نستمع إليه بإنصات شديد واهتمام. نحن أمام شخصية مغـايرة تمامًا لشخصية عاتيد بن يامين. يبدو أن له نظريـة أو فلـسفة في العطـور يحاول أن يشرحها لنا، وهي التي أوصلته لهذا النجاح في المنطقة العربية. كان يتحدث بطلاقة وبلغة عربية مبينة تجري على لسانه بـسهولة ويـسر. أظنُّ أن حفظه للقرآن الكريم ومجاورته للحرم المكـي الـشريف هـو سر هذه الطلاقة والفصاحة. يبدو أنه قرشي أصيل.

قال عبدالصمد:

– أخي عمر منذ أن لاقيتكم أشمُّ رائحة لم أشمها من قبـل، وأنـا الخبير في عالم العطور والبخور والمسك والعنبر والطيب ودهـن العـود. وأستطيع أن أميز بأنفي بين العطر الأصيل والعطر المزيف، بـين العطـر القديم والعطر الحديث. إن الرائحة التي أشمها الآن تجمـع بـين القِـدم والعراقة والأصالة والفخامة. إنه عطر ملكي. خليط ممتاز من أعـشاب ونباتات غير موجودة الآن ومـاء الـورد العاشـق الـذي بـدأ ينقـرض، والعترة (قطعة من المسك الخالص). فمن أين لكم هذه الرائحة؟

قلتُ له:

– هذه الرائحة موجوة لديكم بجوار بئر زمزم.

– استحالة.

– كما أقول لك يا شيخ عبدالصمد.

– كيف عرفتَ؟

- إنها قصة طويلة.

- يبدو أن لديك الكثير من الأسرار العطرية، وأنا الذي أدعي معرفتي وإحاطتي بكل ما يتعلق بالعطور والبخور ورثتها كابرًا عن كابر! هكذا أنتم دائما أيها المصريون، تفاجئوننا بما لا نتوقعه، وفعلًا فوق ذي كل علم عليم.

- إننا مُجْهَدان الآن من الطواف والسعي، والسفر فقد حضرنا من الإسكندرية فجر اليوم، ولم ننم.

- إذن أنتما في ضيافتي طوال إقامتكما في مكة المكرمة.

- نحن جئنا مع شركة سياحية تنظم رحلات الحج والعمرة، وملتزمان ببرنامجها.

- لن أتركك. وفرصة لزوجتك الكريمة المعطارة أن تتعرف إلى أم فهد، أو أم فهد تتعرف إليها. بالمناسبة الأخ عمر .. أبو إيه؟

- نحن زوجان جديدان ولم ننجب بعد.

ضحك أبو فهد عاليًا، قال:

- على اعتبار ما سيكون؟

ضحكتُ أنا الآخر، خلاص:

- أبو محمد.

- تفضل أبو محمد سنذهب الى البيت الآن، نتغـدى معًـا، ونكمـل حديثنا.

اتصل أبو فهد بأم فهد وقال لها:

- هناك ضيوف مصريون سيأتون معي.

دخلت هدى (أم محمد على اعتبار ما سيكون) جناح الحريم بقـصر عبد الصمد المكي.

امتـدت موائـد المـأكولات والمـشروبات والـذبائح، في وليمـة لا يحضرها غيري، وهدى في وليمة على الجانب الآخر (في الحرملـك) مـع أم فهد.

أراد أبو فهد أن ينتزع اعترافًا أو سِرًّا مني، فأفهمته أنني متعب جدًّا الآن، ولن أستطيع الشرح أو البوح بما لديَّ من أسرار.

- إذن ادخل ارْتَح في جناح الضيوف الأعزاء.

- معذرة أبو فهد حقيبتنا في الفندق ولا بـد مـن العـودة، ونلتقـي صباحًا لأشرح لك كل شيء، ربما أجـد حلـولًا عنـدك، فأنـا أثـق بـك وبرجاحة عقلك وتفكيرك، وفي سمعتك الطيبة المنتشرة في المنطقة.

- كما تحب أبا محمد.

جولة في مكة المكرمة

لم يصدق عبدالصمد المكي (أبو فهد) ما قلته.

قال:

- أبو محمد أنت تحكي لي أساطير، معقول ما تقوله.

- نعم .. هذا هو الحال، كيف تفسر إذن رائحة زوجتي هدى؟

- هذا هو السر الذي لم أعرف تفسيره.

أخذ يفكر بعمق فيما قلته، ثم قال:

- لو القنينة بالفعل كانت موجودة كما تقول بجوار بئر زمـزم عـلى بعد مترين أسفل الأرض، هل تظنُّ أنها ستكون موجودة حتى الآن؟

- هذا ما سوف تقوله عمليات الحفر حول البئر.

– هذه مسألة عويصة. أنا أعرف كل المسئولين وكل مستشاري مشروع التوسعة، فضلًا عن الأمراء، بل خادم الحرمين الشريفين شخصيًّا، ولكن الحصول على إذن منهم لإعادة الحفر حول البئر بحجة وجود قنينة عطر منذ أكثر من ألفي سنة، مسألة قد لا يصدقونها.

– لا حلَّ آخر أمامنا، خاصة أن كل تحركات في الحرم مرصودة ومصورة.

– دعني أفكر كيف نبدأ. وكما قلت لك أنت ضيفي وعليك أن تأتي بحقائبك أنت وأم محمد، لتكونا معنا. وإذا لم تستجب لدعوتي فسأحجز لك جناحًا في أبراج البيت الملاصقة للحرم.

– لا داعي لحجز الفندق، سأقيم معك هنا.

– وأنا سآخذكما في جولة على معالم مكة فأنت أول مرة تأتي إلى هنا.

أخذنا عبد الصمد المكي في سيارته الهامر. زُرنا غاري ثور وحراء ومقبرة المعلاة، التي تضم جثمان أم المؤمنين وزوجة النبي محمد صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة بنت خويلد. كما زرنا جبل عرفات ومنى ومزدلفة وجسر الجمرات، ولم يكن هناك أحد من البشر في تلك المناطق التي تعجُّ بملايين الحجاج في موسم الحج. كما زرنا مصنع الكسوة الشريفة. في أثناء زياراتنا لتلك الأماكن كان يحدثنا عن تاريخ مكة، تاريخ الحرم، الحجر الأسود، العصر النبوي، كسوة الكعبة، وصولًا إلى العصر الحديث. كلما جاءت فرصة للحديث عن العطور والبخور

والمسك والطيب يحاضرنا فيها بموسوعيته. وبين كل معلومة ومعلومة يؤكد أنه لم يسمع عن زيارة الملكة المصرية كليوباترا لبئر زمزم، وإيداعها قنينة عطر هناك. كان ردي العملي عليه هو رائحة أم محمد. فيعود مقتنعًا.

في طريق عودتنا من المزارات المكية، سألته:

- ماذا سنفعل؟

قال إنه سيحدث المهندس الاستشاري للحرم المكي فهو صديقه، ونرى ما يمكن أن يكون.

- وقتنا ضيق أبو فهد، ونريد أن نعود إلى مصر مع زملاء الرحلة، بعد زيارة الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة.

- إن شاء الله تعودان سالمين غانمين رابحين موفقين.

طلب مهندس الحرم المكي مقابلتي لأشرح له ما غمض عليه في حديث عبد الصمد المكي، وأحدد له المكان الذي من الممكن أن يجري مجسات له قبل عملية الحفر.

ظلت هدى في ضيافة أم فهد، التي أكرمت وفادتها وأحبتها وأحبت عطرها، ودعت لها أن يوفقنا الله في العثور على تلك الزجاجة التي جئنا من أم الدنيا من أجلها.

أم فهد تحب مصر والمصريين، ويمتلك زوجها فيلا في المعادي على النيل، وكانت تردد دائمًا حديث رسول الله ﷺ: **"استوصوا بأهلها**

خيرا، فإن لنا فيهم نسبًا وصهرًا". وقد سميت ابنتها الكـبرى "هـاجر" استذكارًا للسيدة هاجر المصرية التي على يديها تفجرت بئر زمزم في أثناء سعيها بين الصفا والمروة لتسقي ابنها إسماعيل جد النبي محمد ﷺ.

مخلفات بئر زمزم

ذهبتُ مع أبي فهد لمقابلة المهندس الاستشاري عوض السعدي، تفرغ لنا تمامًا، أغلق مكتبه علينا بعد تقديم واجب الضيافة، شرحت له الموضوع.

قال: دخلتْ بئر زمزم في عمليات التوسعة الأخيرة التي أشرف عليها، وكان العمال يستخدمون البلدوزر الذي يغوص في باطن الأرض ويستخرج كل ما في باطنها، على بعد أكثر من مترين بطبيعة الحال، وحول كل جوانب البئر.

قلت:

- هذه المخلفات التي يحملها البلدوزر إلى أين تذهب؟

- نلقيها على حافة الصحراء بعيدًا عن العمران.

- ممكن نقوم بغربلتها، كميةً كميةً؟

– مع أنه شيء صعب جدًّا، ولكنه ليس بالمستحيل. سأكلف بعض عمالي إكرامًا لأبي فهد ولك، بغربلة تلك المخلفات.

مرت ثلاثة أيام والعمال يغربلون الرمل والحصى والأحجار المتكلسة التي نقلوها من منطقة بئر زمزم بالحرم، كانوا يجدون في أثناء تلك الغربلة: عملات معدنية مختلفة، شباشب بلاستيكية من مخلفات الحجيج، ساعات يد محطمة سقطت من أصحابها في زحام أداء المناسك وداست عليها الأقدام، أكياس بلاستيك فارغة، أكياس بلاستيك بها بقايا مأكولات متعفنة، زجاجات مياه فارغة، علب كولا وسفن أب، وغيرها.

عثر أحد الهنود الذي يعملون مع فريق الغربلة على زجاجة لها هيبتها وهيئتها وممتلئة عن آخرها، وتحمل رائحة نافذة. سلمها لرئيسه الذي اتصل بالمهندس عوض السعدي، فقال له المهندس:

– تعالَ فورًا.

اتصل عوض السعدي بأبي فهد بمحله الكبير وكنتُ جالسًا معه، قال:

– يبدو أن البحث أثمر عن شيء، أرجو أن تمر عليَّ في مكتبي بالحرم الآن.

تهلَّل وجه عبد الصمد المكي، أحسستُ أن هناك خبرًا سارًّا. قال:

– والله يا بومحمد يبدو أنك محظوظ، هناك أخبار سارة يحملها المهندس عوض السعدي. هيا بنا إلى الحرم.

تحليل معملي

عُدنا بالقارورة إلى فيلا عبـد الـصمد المكـي. لم يكـن مُـصدقًا أننـا حصلنا عليها، وأن الطريقة التـي فكـرتُ بهـا في مـسألة غربلـة الحطـام كانت هي الأنسب للبحث. لم أشأ أن أخبره أن تلك الفكرة ألقاها المـاء العاشق في روعي لحظة استحضاره وأنا مقيم في جناحي بقصره.

سألني أبو فهد:

- ماذا ستفعل الآن؟

- في الحقيقة أبوفهد أنا مرتبط مع شركة فرنسية للعطور إذا عثـرت عليها أبيعها لهم.

- ما المبلغ المعروض عليك؟

- لم نتفق على مبلغ محدد.

- ممكن تـترك لي القـارورة أحللهـا وأعـرف مكوناتهـا في معـاملي الخاصة.

- هل ستعرف كيف تفتحها؟

- الطريقة سهلة جدًّا، اتركها لي فقط، وسأعيدُّها لك سالمة.

- أريدُ أن أذهب معك للمعمل، هل هناك ما يمنع؟

- لا ليس هناك أي مانع .. هيا بنا.

استطاع عبدالمقصود المكي أن يفـتح الزجاجـة مـن خـلال أدواتـه المعملية الدقيقـة، دون أن تنـسكب قطـرة واحـدة عـلى الأرض. أثبـت التحليل المعملي أن الزجاجة تحتوي على عطر قـديم جـدًّا لا يوجـد مـا يشبهه الآن، وأنه يتكون من أعشاب ونباتات عطريـة منقرضـة، كانـت تُزرع في قبرص، ودلتا مصر، وواحة سيوه، مضافًا إليه قطرات من ميـاه بئر زمزم الربّانية.

قال أبو فهد من خلال معرفته لتاريخ العطور:

- القبارصة هم وحدهم الذين يمكنهم نسبة أقدم عطر في العـالم إلى أنفسهم. وارتبط اسم كليوباترا التي حكمت مصر، بأنواع معينة من العطور التي كانت تجلبها من الخارج. ووسط أعشاب بريـة ناميـة عـلى سفح جبل في قبرص يطلُّ على منظر رائع للبحر المتوسط توجـد حفـرة بها رسوم دائرية الشكل تحتوي على قناني عطر يظنُّ علماء آثار إيطـاليون

أنها أقـدم مـصدر لـصناعة العطـور ويُظـنُّ أن كليوبـاترا اسـتخدمتها، ونجحت في صناعة عطرها الفريد.

وأضاف المكي:

– عثر علماء من المعهد الإيطالي للتقنيات التطبيقيـة عـلى المـيراث الحضاري لروائح القرفة والغار والآس واليانسون والليمون بين شظايا الفخار وكلها من النباتـات التـي تنمـو في المنطقـة. وتركـت كليوبـاترا بصمة لا تُمحى على العطر باعتباره منتجًا يركع الرجال والنـساء أمامـه، أو هذا ما يرغب منتجو العطور بتكريسه في أذهان الناس.

تأكد أبو فهد أنه أمام عطر لا يتكرر، التحليلات أثبتت أن زجاجـة العطر مدفونة منذ أكثر مـن ألفـي سـنة ببـاطن الأرض إلى جانـب بئـر زمزم. قال وهو يعيد إليَّ الزجاجة بعد أن أحكم إغلاقها:

– أريد أن أدخل شريكا مع الشركة الفرنسية للعطور.

حكيت له حكاية عطر اليهودي عاتيد بن يامين. وأن أصله العطـر الذي عثرت على زجاجته في حمام كليوباترا بمرسى مطروح.

– أنا لم أتعرَّف بعدُ هذا العطر، فلا يوجد له موزع بالمملكة العربيـة السعودية. ومع ذلك لا بد لي من الحصول عليـه، لأعـرف مـا يـدور في عالم العطور.

نبَّهني أبو فهد إلى ملاحظة مهة جدًّا، وهو أن هناك فرقًا طفيفًا جدًّا أو اختلافًا بسيطًا جدًّا، قد لا يُلاحظه الشخص العـادي بـين رائحـة أم محمد (هدى) وبين العطر الذي عثرنا عليه.

– معنى ذلك أن كليوباترا لم تكن تصنع عطرًا موحَّدًا، ولكنها وهي تقطِّره في قاروراتها وقنيناتها ومعاملها تضيف وتحذف عناصر معينة، بحيث يختلف كل عطر عن الآخر.

– تحليلك سليم بومحمد. ولكن في جميع الأحوال فإن العطر فخم وملكي وأثري، ويهمني أن أضمه إلى مجموعة عطوري في محلاتي.

– ما رأيك أبو فهد نتصل بشركة العطور الفرنسية، ونتباحث معهم؟

– أبو محمد .. أنا كرجل في السوق أو كتاجر، أرى أن هذه الاتفاقات والمباحثات لا تجري في التليفونات، لا بد أن نكون على طاولة مفاوضات واحدة.

– فلنذهب إذن إلى باريس.

أديل الفرنسية

كانت باريس تتهيأ لاستقبال "مهرجان السينما العربية" في أثناء وجودنا هناك. اكتشفت أن عبد الصمد المكي يعشق الموسيقى والأغاني والسينما العربية والأجنبية والفن التشكيلي. على الرغم من عدم وجود دور عرض سينمائي في مكة، فإنه يحرص على مشاهدة فيلم عربي أو هندي أو أمريكي كل يوم، إما من خلال التلفزيون أو أشرطة الفيديو أو عن طريق مواقع الإنترنت، مثل يوتيوب.

أخبرني أنه يحرص على زيارة دور السينما والمسارح والمتاحف في كل مدينة يزورها، سواء كانت القاهرة، أو باريس، أو لندن، أو برلين، أو نيويورك. يستطيع المكي أن يشم روائح الممثلين والممثلات وهم يؤدون أدوارهم على شاشة السينما أو في التلفزيون. كما أنه يشم روائحهم على خشبة المسرح حتى ولو جلس في الصف الأخير. يستطيع أن يميز بين عطر وعطر في أثناء أداء الممثل لدوره.

قال:

– ممثل المسرح النجم يبذل جهدًا كبيرًا على خشبة المسرح، يتعرّق كثيرًا، لذا يحرص على أن يسكب كمية كبيرة من العطور على نفسه قبل الظهور على خشبة المسرح.

كلمة "التعرّق" التي أطلقها عبد الصمد المكي ذكرتني بحالة هدى قبل اكتشاف العطر في حمام كليوباترا، وقبل الذهاب إلى مغارة جعيتا. سبحان الله بين الرائحتين. رائحة تبعث على الغثيان والتقيؤ من على عدة أمتار، وأخرى مسكية وعنبرية جلبت الحظ والمال والشهرة لكلينا.

كنا على موعد مع الفرنسية أديل رئيسة المبيعات في مقر الشركة. هذه المرة لا يوجد معنا وليم شكري، ولكن عبد الصمد المكي يتحدث الفرنسية جيدًا. وهدى لا بأس من فرنسيتها بعد أن صممت على التعلم وتجهيز نفسها لتصبح شخصية مهمة في المجتمع العالمي.

حكينا لأديل عن اكتشافنا الجديد، وأخرجتُ زجاجة العطر، شمَّتها بقوة، وقالت إنه يختلف اختلافًا طفيفًا عن العطر الذي يروج له عاتيد بن يامين وأطلق عليه اسمه.

طلب أبو فهد أن يتعرَّف هذا العطر الذي لا يوزع في مكة. مدَّت يدها إلى حقيبة بجوارها، أخرجتْ زجاجة لها شكل انسيابي كأنها جسد امرأة تتموج، وأعطت عبد الصمد إياها.

كنت أول مرة أشاهد زجاجة العطر الجديد الذي يروج له عاتيد. وضع المكي قطرة على ظهر يده وشمَّ بقوة، وقال:

- هذا عطر رائع، وسأل عن سعر الزجاجة.

ذكرت له أديل رقمًا، فأخذ يقلبه في عقله، وقال:

- عطرنا الجديد لن يقل عنه روعة أو ثمنًا.

اقترحت أديل على عبد الصمد المكي أن يكون مندوبهم في السعودية، مرجئةً دخوله شريكًا مع الشركة الفرنسية لحين صدور تعليمات أخرى. فالشركة لا تنتج هذا العطر الجديد فحسب، ولكنها تنتج إلى جانبه مستحضرات تجميل عالمية، وعطورًا أخرى رجالية ونسائية وطفولية.

أبلغتُ أديل برقم المبلغ الذي عرضه عاتيد بن يامين في الزجاجة السابقة، وأنه على استعداد لشراء الزجاجة الجديدة بالمبلغ نفسه.

قالت:

- مسيو عمر نحن اتفقنا من قبل على أن هذه الزجاجة ستكون ملكًا لنا في باريس، تعويضًا عن الزجاجة السابقة. فلا داعي لذكر اسم عاتيد هنا.

- أنا لم أسمع منكم رقمًا حتى الآن.

- دقائق مسيو عمر.

خرجت أديل من مكتبها، اختفت بعض الوقت، ثم عادت. جلست على طاولة المفاوضات وقد ارتسمت على وجهها ملامح الصرامة والجدية، قالت:

– سندفع ثمانية ملايين يورو مسيو عمر، سيكون مسيو عبد الصمد شريكًا معنا في إنتاج العطر الجديد، سنطلق عليه "عطر كليوباترا" كما اتفقنا، سننتج فيلمًا دعائيًّا لتسويق العطر الجديد، تظهر فيه هدى في شخصية كليوباترا، مع الممثلة الفرنسية العالمية بريجيت باردو التي يعود إليها شبابها بعد أن تضع قطرات من العطر الجديد.

– هايل.

أضافت وكأنني لم أقل شيئًا:

– تصوير الفيلم الدعائي سيكون في ثلاثة أماكن. في باريس أمام برج إيفل، وفي الجيزة أمام الأهرام، وفي مرسى مطروح أمام حمام كليوباترا. هل لكم أي استفسارات أخرى؟

صرامتها وجديتها جعلتنا نحن الثلاثة (هدى وعبدالصمد وأنا) غير قادرين على الكلام.

نظر إليَّ عبد الصمد المكي ثم قال بعد حين:

– موافقون.

أخرجتْ بعض الأوراق قرأناها جميعًا، وقعتْ عليها (طرف أول)، ثم وقعنا عليها (طرف ثانٍ)، واحتفظ كلُّ طرفٍ بنسخة منها. تذكرتُ أنني لم أوقع على شيء في صفقة عاتيد بن يامين، الرجل أخذ الزجاجة وأحضر لنا المبلغ نقدًا، ثم ذهبنا إلى ميناء تل أبيب لنبدأ رحلة العودة إلى الإسكندرية.

مهرجان السينما العربية

عُدنا إلى الفندق، استرحنا قليلًا، اتصل بي المكي على تليفون حجرتي، ليذكرنا بافتتاح "مهرجان السينما العربية" في معهد العالم العربي المطل على نهر السين. في الميعاد المحدد التقينا في بهو الفندق، وذهب ثلاثتنا إلى معهد العالم العربي.

بدأ النجوم العرب يتوافدون إلى مقر المعهد، نبهتني هدى إلى وجود ليلى علوي في صحبة المخرج خالد يوسف. اصطحبتُ عبد الصمد وذهبنا نصافح ليلى علوي التي كانت سعيدة بوجودنا في باريس، قالت:

- أكيد أنتم هنا بخصوص شركة العطور الفرنسية.

- نعم، وصلنا إلى اتفاق جيد معهم. أما زلتِ مصممة على عدم الشراكة؟

– لا وقت لديَّ يا عمر فعلًا لمتابعة هذا الأمر، كنت متحمسة في البداية فعلًا، ولكن وجدتُ نفسي غير قادرة على القيام بدور الشريك.

– إذًا أقدم لكِ شريكًا عربيًّا جديدًا مع الشركة الفرنسية .. عبد الصمد المكي.

– أعرف هذا الاسم تمامًا، أنت من كبار أصحاب شركات العطور في المنطقة، تشرفنا.

ثم أضافت:

– هذه هي الشراكة المناسبة.

قال عبدالصمد:

– الشرف لي نجمتنا المحبوبة.

قالت ليلى:

– أُقدِّم لكم المخرج خالد يوسف الذي سيخرج لنا الفيلم الجديد "كليوباترا المصرية". لقد حدثته عن الفيلم، وينتظر أن يسمع منكما أنت وهدى بقية التفاصيل.

قال خالد:

– محتاج أجلس معكما كثيرًا في مصر. طبعًا هنا لن نجد الوقت الكافي.

– بالتأكيد. سنلتقي في القاهرة وفي الإسكندرية إذا أحببت.

بذكائه وسرعة بديهته أدرك عبد الصمد المكي عـن مـاذا نتحـدث، فقال:

- أنا أنتج هذا الفيلم.

قلتُ له ضاحكًا:

- سبقتك يا أبو فهد، وتم الاتفاق على أن أقوم أنا بإنتاجه.

- يابو محمد، هناك أماكن تـصوير للفـيلم سـتتم في مكـة وفي بئـر زمزم. اجعلني شريكًا معك في الإنتاج لصالح العمل.

- قلت لليلي علوي وخالد يوسف:

- ما رأيكما؟

- قالا:

- فليكن فيلم "كليوباترا المصرية" أو "الماء العاشق" إنتاج مصري سعودي مشترك.

موسيقى تصدح في سماء القيعان

مرت سنوات ثلاث، نجح الفيلم نجاحًا مُبهرًا، أصبح ينافس فيلم إليزابيث تايلور. تمت ترجمته إلى عدة لغات، حقق توزيعًا عالميًّا كبيرًا، صارت شهرة هدى إسماعيل في شهرة اليزابيث تايلور، صار خالد يوسف في شهرة ستيفن سبيلبرج، خطت ليلى علوي بدورها الصغير في الفيلم خطوات نحو العالمية.

عُرض الفيلم في مهرجان "كان" السينمائي، بحضور أبطاله ومخرجه ومنتجَيه،

فوجئ الجميع بروح مارك أنطونيو تحلّق في صالة العرض الرئيسية في أثناء عرض الفيلم، مرت الروح على شاشة العرض الكبيرة. رآها الجميع بزيها الروماني القديم، كأنه فارس شجاع جاء من بطون التاريخ، أعلنت الروح حبها وولاءها لكيلوباترا المصرية، وقالت:

صارت الإسكندريـــةْ هي في البحر المنارْ

ولها تاجُ البريّـــــــةْ ولها عرشُ البحارْ(*)

تخرج هدى إسماعيل من عمق الشاشة لتعانق روح أنطونيو وهي تظن أنه بطل الفيلم عمر ياسين، قائلة:

مُرْ بما شـــئتَ قيصـــرُ وأشِرْ كيفَ تأمـــرُ

لكَ قصري وما حوى الـ قصرُ .. كلٌّ مُسَخَّرُ

ليس شيءٌ وإن غـــــلا عن حبيبٍ يؤخَّـــرُ

لتكونـــــــنَّ ليلـــةً آخرَ الدهرِ تُذكَـــرُ(*)

قالت الروح:

... وددتُ أنَّني مصريٌّ

وأنني تابِعُك الوفيُّ

ما في سوى رضاكِ لي مُضِيٌّ

تُشير كليوباترا إلى أحد السقاة في الفيلم واسمه غانميز تقول له:

يا غانميز .. هاتِ النبيذ

هاتِ اسقني

(*) من شعر أحمد شوقي في "مصرع كليوباترا".

واسقِ الحبيب

واسقِ الملا

لكن روح أنطونيو تنسحبُ تدريجيًّا من صالة العرض مرددة في صوت آخذ في التلاشي تدريجيًّا:

لستُ أقولُ مَلاكي الوداع

ولكن أقولُ إلى الملتقى

لستُ

أقولُ ..

ملاكي ..

الوداع ..

ولكن ..

أقولُ ..

إلى ..

المُل- ..

ت ..

قَ ..

ى

..

بينما تترنح كليوباترا في مشهد مؤثر وهي تقول:

آه أنطونيو حبيبي

أدركوني بطيبِ

ظنّ المحكمون والمشاهدون أنها خدع سينمائية من المخرج خالد يوسف كنوع من الإبهار والتجديد، أعلن المخرج المصري أنه فوجئ مثلهم بهذا الأمر. وكالات الأنباء العالمية التي تغطي وقائع المهرجان، تحدثت عن روح أنطونيو التي حلقت في سماء العرض، ثم اختفت مخلفة وراءها الإبهار والأسئلة.

المصورون الصحفيون كانوا في حالة ذهول، ولم يفطن أحد منهم لالتقاط صورة لهذا المشهد النادر سوى أحد الحضور، الذي التقط صورة واحدة بصعوبة بالغة، نُشرت فيما بعد في جميع صحف العالم، فسهر الخلق جرّاها واختصموا فيها حتى الآن.

كاد الفيلم يحصل على "السعفة الذهبية"، لولا بعض التدخلات التي كانت لصالح فيلم أمريكي إسرائيلي مشترك. حصل "كليوباترا المصرية" على إشادات عالمية من النقاد ومحبي الفن السابع.

في بهو الفندق بمدينة "كان"، كان عاتيد بن يامين ينتظرني، سلَّم عليَّ بحرارة هنَّأني على هذا النجاح الساحق. لم يحدثني عن شقة سيدي

بشر، ولا عن روح أنطونيو التي ظهرت فجأة واختفت، لكن طلب مشاركته في إنتاج فيلم مصري إسرائيلي، بطولة هدى إسماعيل وممثلة يهودية مشهورة، نسيت اسمها. رفضت طلبه، جحظت عيناه وأصابعه، ومضى غاضبًا.

سألتني هدى عن سر غضب عاتيد بن يامين، وجحوظ عينيه وأصابعه، شرحت لها، احتضنتني وقبلتني أمام التجمع السينمائي الذي لا يعرف سِرَّ هذا الغصب، ولا سِرَّ تلك الفرحة العارمة.

عدنا إلى الإسكندرية. أوحشني الماء العاشق جدًّا. ذهبتُ إلى بئر مسعود كثيرًا، جلستُ على حافة البئر، الزائرون يرمون عملاتهم المعدنية إلى قاع البئر، وبعض الشباب ينزلون للحصول عليها.

بعد شروق الشمس أسبح إلى صخرة ميامي، أجلس هناك بعض الوقت، أرى طيور النورس تُحلِّق من بعيد، لا تقترب مني، أبحثُ عن نبع ماء عذبٍ وسط الصخور. لم أجد شيئًا. لكني أسمع موسيقى تصدح في سماء القيعان، أسمع صوت مرور الزمان، وأرى شموعًا تضيء الممرات والأركان.

ميامي ١٣/ ٩/ ٢٠١٦

الفهرست

الرواية	الصفحة
• الماء خليلي	٧
• الماء والتراب	١٣
• التعرّق	١٩
• الزجاجة	٢٣
• فندق عروس البحر	٢٧
• انثري العطر	٣٣
• الفستان	٣٩
• سمراء بلون النحاس	٤٣
• يا ساكني مطروح	٤٧
• عودة الرائحة	٤٩
• هدى إسماعيل	٥٣
• شيخ مغارة جعيتا	٦١
• طبيب ومريضة	٦٧
• في مطار برج العرب	٧٣
• البهنانة	٧٧
• هل؟	٨١

الرواية	الصفحة
• كليوباترا الجديدة	٨٣
• عرض فرنسي	٨٥
• ليلى علوي	٨٩
• بئر مسعود	٩٣
• سيدي بشر	١٠٣
• صخرة ميامي	١٠٧
• في ديليس	١١٣
• بئر زمزم	١٢١
• الرحلة البحرية الصعبة	١٢٥
• العطر .. العطر .. السحر .. السحر	١٣٣
• سفينة إسرائيلية	١٣٩
• عاتيد بن يامين	١٤٧
• جولة في تل أبيب	١٥٣
• العودة إلى الإسكندرية	١٦١
• الفور سيزون	١٧٣
• فراق	١٧٧
• حفل زفاف تحت الماء	١٨١
• عباس النورس	١٨٩
• باريس	١٩٧
• عبد الصمد المكي	٢٠٣

الرواية	الصفحة
• جولة في مكة المكرمة	٢١١
• مخلفات بئر زمزم	٢١٥
• تحليل معملي	٢١٧
• أديل الفرنسية	٢٢١
• مهرجان السينما العربية	٢٢٥
• موسيقى تصدح في سماء القيعان	٢٢٩

أحمد فضل شبلول

سيرة ذاتية وأدبية مختصرة

- مواليد الإسكندرية.

- حصل على جائزة الدولة التشجيعية في الآداب عام ٢٠٠٧.

- تخرج في كلية التجارة - جامعة الإسكندرية.

- عمل محررًا أدبيًّا في مجلة "العربي" بالكويت، ومسئولًا ثقافيًّا بقناة البوادي الفضائية. ويعمل حاليًّا المسئول الثقافي لشبكة ميدل إيست أونلاين.

- له ثلاثة عشر ديوانًا شعريًّا مطبوعًا، آخرها: اختبئي في صدري – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٧.

- يكتب للأطفال وأصدر ثمانية كتب في هذا المجال آخرها ديوان "أحب الحياة" – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٧.

- يكتب الدراسات الأدبية والنقدية وله ١٨ كتابًا مطبوعًا في هذا المجال آخرها: "آفاق وأعماق .. عشرون رواية مصرية". وحصل على جائزة المجلس الأعلى للثقافة - شعبة الدراسات الأدبية والنقدية عام ١٩٩٩ عن بحثه "تكنولوجيا أدب الأطفال".

أصدر بعض المعاجم العربية منها: معجم الـدهر. ومعجـم أوائـل الأشياء المبسط. ومعجم شعراء الطفولة في الوطن العربي خـلال القـرن العشرين.

عضو مجلس إدارة اتحـاد كتـاب مـصر (٢٠٠١ - ٢٠١٠) ونائـب رئيس اتحاد كتاب الإنترنت العرب (٢٠٠٥ - ٢٠٠٩).

كرَّمــه مــؤتمر أدبــاء مــصر ٢٠٠٩، والاتحــاد العــربي للإعــلام الإلكتروني ٢٠١٠، وملتقى الشارقة للشعر العربي الثامن ٢٠١٠ ومجلة دبي الثقافية ٢٠١٠. وهيئة قصور الثقافة ٢٠١٦. وملتقى السرد العـربي الخامس بالأردن ٢٠١٦.

أُعدِّت عن أعماله رسائل أكاديمية آخرها رسالة ماجـستير بعنـوان "بنية العلامات في أدب الأطفـال عنـد أحمـد فـضل شـبلول" للطالبـة السعودية فاطمة القرني بجامعة الطائف بالمملكة العربية السعودية.

تُرجمت بعض أعماله الشعرية ومقالاته للعديد من اللغات الحية.